دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	شعر أبي يعقوب الخريمي : دراسة موضوعية
المصدر:	مجلة الدراسات العربية (كلية دار العلوم - جامعة المنيا) - مصر
المؤلف الرئيسي:	عبدالغني، حسن إسماعيل
المجلد/العدد:	ع 23, مج3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الشهر:	يناير
الصفحات:	1345 - 1400
رقم MD:	381093
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	شعر المديح ، الخريمي ، إسحاق بن حسان بن قوهي ، ت. 212 هـ.، الشعر العربي ، الشعراء العرب ، الدواوين و القصائد ، الدواوين و القصائد ، العروض و القوافي ، شعر الرثاء
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/381093

© 2018 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

شعر أبي يعقوب الخريمي

دراسة موضوعية

الباحث/ ناصر محمد سعد العجمي

إشراف

الأستاذ الدكتور/ عصام خلف كامل

الدكتور/ حسن إسماعيل عبد الغني

كلية دار العلوم – جامعة المنيا

مقدمة:

ذكر صاحب الورقة أبو عبدالله محمد بن دار بن الجراح أنه: أبو يعقوب واسمه إسحق بن حسان بن قوهي جزري نزل بغداد، وأصله من مرو الشاهجان صغدي[1]. وقال ابن قتيبة(٢١٣،٢٧٦هـ) إنه إسحق بن حسان، ويكنى أبا يعقوب من العجم، وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه خريم الناعم[2]، وقيل: هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهي الصغدى أصلاً الخريمي ولاء، والصغد كوره قصبتها سمرقند، وقيل هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى، وهو في الأصل اسم للوادي والنهر الذي تشرب منه هذه النواحي. وتقع الصغد فيما وراء النهر أي جيحون الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية؛ أي إيران وتوران، فما كان من شماله أي وراءه من أقاليم قد أسماها العرب ما وراء النهر. فالأول في أصل إسحق يكون تركياً، ولابد من أن تعني كلمة

١- الورقة، أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح، تحقيق: الدكتور عبد الوهاب عزام، عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ص١٠٩.

٢- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م، ج٢، ص٨٥٣.

الأعاجم أو العجم التي ترد عن الحديث عنه: الترك وذلك بدليل صريح هو قول ابن المعتز: " كان من نسل الترك"(١).

وذكره بروكلمان بقوله: "هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهجي الخريمي، كان أعجمياً مثل خلف الأحمر، ولعله كان من الصغد، وازدهر شعره في عصر الرشيد والمأمون ومدحهما، وكان الخريمي على النقيض من خلف الأحمر يفتخر بأصله الفارسي، ويذهب مذهب الشعوبية في تفضيل الفرس على العرب"(٢)(٣).

والراجح في القول أنه من بلاد فارس العجم؛ وذلك من قوله في قصيدة يمتدح بها نسبه وأصله مفتخراً(٤).

وَإِنَّ أَبِي ساسان كسرى بن هرمز وَخاقان لي لَو تَعلَمين نَسيب

- مولده ونشأته:

لا نعرف شيئًا يذكر عن ميلاده بلادًا أو تاريخيًا، ولكن حياته الأولى تتصل بخراسان وسجستان، وكان يشكو ويتنقل كأنه يبحث عن كريم ماجد، ووجد ذلك في عثمان بن عمارة بن خريم الناعم(٥)، وقد تكون ولادة إسحق تقع في إحدى المدن الكثيرة من خراسان وإنها مرو الشاهجان إن لزم التخصيص، أما تاريخ ولادته فلم يشر إليه أحد، وقد ذُكر أنه من طبقة تلي سناً طبقة بشار وأبي نواس.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤١، الجزء الثالث ١٩٦٦م، على جواد الطاهر، ص٤٤٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، القسم ١ ،٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٣٩.

(٣) الديوان: ص٣٨.

(٤) الديوان: ص١٥.

(٥) المصدر نفسه: ص٥.

وفي سجستان ترعرع وشب وتعلم وطلب العلم والأدب[1]، وعاش في الجزيرة والشام والتحق في بغداد بشعراء هارون الرشيد[2]، وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه خريم الناعم، وهو خريم بن عمرو بن بني مره بن عوف بن سعد ابن ذبيان[3]، ونشأ بين العرب مولى لآل خريم، واستشعر ببغداد في العقود الأخيرة من القرن الثاني، وكان له بها منزل.

- ثقافته وشعره:

الخريمي واحد من أعذب شعراء المرحلة العباسية قولاً وأرقهم طبعاً وأقربهم إلى سماحة الشعر ويسره وعفويته مع تمكنه في الإنشاء ووعي للمعاني وصفاء في الأسلوب[4].

قال ابن المعتز حدثني المبرد قال: "كان الخريمي شاعرًا مفلقًا مطبوعًا مقتدرًا على الشعر، وكان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيعطي الكثير، وله في الغزل منح كثيرة ومحاسن جمة، وهو القائل يفتخر[5]:

ولَست بنظّار إلى جانب الغِنى إذا كانَت العَلياء في جانِب الفَقرِ

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ص٤٤٩.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ص٢٠٩.

(٣) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص٨٥٣.

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي، الدكتور/ مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٩ م، ص٥٢٣.

(٥) الديوان: ص ٧١.

ولقد أثنى ابن المعتز والمبرد والآمدي وأبو حاتم السجستاني على شعره كثيرًا[١]، وعنه نفسه روى الجاحظ في البيان والتبيين والفهرس والحيوان.

ولا يخفى أن شهادة هؤلاء النقاد الكبار تعني الكثير، وتضع الشاعر في مصاف الكبار من شعراء عصره، فهذا عبدالله بن المعتز الأمير الخليفة العالم الشاعر يقول: "إنه كان شاعراً مفلقاً مطبوعاً مقتدراً على الشعر"[٢].

أما أبو حاتم السجستاني فيقول: الخريمي أشعر المولدين، ويذكر له ابن النديم[٣] ديوانًا بمائتي ورقة أي ما يناهز ثمانية آلاف بيت شعر؛ مما يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن من المقلين، وقد وضع في منزلة الفحول، ولم يعرف ما سر ضياع شعره[٤].

وذُكر في الموازنة بين البحتري وأبي تمام أن كثيراً من الناس في الموازنة بين البحتري وأبو تمام جعلوهم طبقة، وذهب قوم إلى المساواة بينهما، وإنهما لمختلفان؛ لأن البحتري أعرابي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل ما فارق عمود الشعر المعروف، فهو يُقاس بأشجع السلمي ومنصور البحتري وأبى يعقوب الخريمي[٥].

---

(١) تاريخ التراث العربي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، فؤاد سزكين، ١٩٨٣م، ص١٢٠.

(٢) طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص٢٩٣.

(٣) الفهرست، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق النديم، ضبطه وشرحه: يوسف علي الطويل، ط٢، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٧م، ص١٨٨.

(٤) شعراء عباسيون منسيون، ص١٥٧.

(٥) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشير الآمدي ٣٧٠هـ، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٥، دار المعارف، ج١، ص٤.

لقد قال ابن جبلة العكوك: "والله لقد نحوته وأنا لا أطمع في اللحاق به لا والله ولا امرؤ القيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع أن يقاربه"(١).

وأبو العباس المبرد قال: "كان أبو يعقوب الخريمي جميل الشعر، مقبولاً عند الكتاب، له كلام قوي ومذهب مبسوط".(٢)

وأكثر الخريمي من حضور مجالس الأدب في بغداد، واختلف إلى مجالس المتكلمين؛ حيث أكثر الجاحظ في بيانه من النقل عنه، وتألق نجمه في عصر الرشيد والبرامكة(٣).

قيل للخريمي: ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبله طبعا، فقال: لأني لا أجاذب الكلام إلا أن يساهلني عفواً، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه(٤).

- علاقته بأصدقائه وممدوحيه:

إن علاقته الأولى كانت عندما وقع على قائد جليل وسيد شريف(٥) هو عثمان بن خريم الناعم، وكان جده سيداً حتى أنه أخذ اسمه، وقيل له إسحق بن حسان الخريمي، وأبو يعقوب الخريمي أو الخريمي فقط، وقد مدحه وأولاده مدحاً كثيراً لقربه منهم وتكسبه عليهم(٦).

---

(١) شعراء عباسيون منسيون، ص١٥٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، تصنيف الإمام العالم الحافظ أبي القاسم الشافعي المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد، دار الفكر، ج٣، ص١٩٩.

(٣) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ط١٧، القاهرة دار المعارف،٢٠٠٧م، ص٣٥٥.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج٨، ص١٩٩.

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية، بدمشق، ص٤٥٠.

(٦) الديوان: ص ٥١.

فَلَو لَم يَكُن إِلّا بِنَفسِكَ فَخرُها لَكانَ لَها يَومِ الفَخارِ بِكَ الفَضلُ

وبعد مقتل عثمان الخريمي رثاه رثاء جميلاً صادقاً صادراً من الوجدان، والتحق بأخيه أبي الهيندام. وبعد موته أيضًا رثاه الخريمي وخلفه ابنه خريم فقام الشاعر يمدحه ويمجده ولما توفى رثاه فقال[1]:

وَقالوا أَلا تَبكي خَريم بن عامِرٍ فَقُلتُ بَلى إِن كانَ ذَلِكَ يَنفَعُ

سَأَبكي أَبا عَمرو لِضيف مدقَّع وَذي حاجة أعيى بِها كَيفَ يَصنَعُ

ولقد مدح الخلفاء والوزراء والأشراف واجتمع بعبد الله الرشيد (المأمون قبل خلافته) عند عبدالله جعفر بن عيسى البرمكي.

وذُكر أيضًا أنه جلس مع جعفر بن يحيى والفضل بن يحيى ومدح يحيى بن خالد.

وكذلك كان يرتاد مجلس محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وكان سخيًا معه، وللخريمي فيه مدائح جياد، وبعد وفاته رثاه، والتقى بكاتب الفضل بن يحيى (أبو علي الحسن بن التختاخ)، وله فيه مدائح، وعندما تولى مصر قال فيه بائية حسنة يتشوق بها إليه[2]:

أَلا مَبلَغٌ عَنّي خَليلي وَدونَهُ مَطا سَفَرٍ لا يَطعَمُ النَومَ طالِبُه

رِسالَةَ ثاوٍ بِالعِراق وَروحُهُ بِفُسطاطِ مِصرٍ حَيثُ جَمّت عَجائِبُه

أما علاقاته الأدبية فيبدو من الظاهر أنها واسعة، فله علاقات واسعة ومتشعبة بأدباء عصره، وعلاقة الجاحظ به علاقة إعجاب، وكان يحضر مجلسه، وله ذكر في كتبه البيان والتبيين والحيوان والبخلاء؛ مما يدل على أنه كان مجالساً له، فضلاً عن علاقته بأحمد بن عبيد بن ناصح المعروف بأبي عصيدة،

---

(١) الديوان: ص ٤٥، ٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

وأمـــا فـــي مجلـــس حماد عجرد وحماد الراوية فقد ورد له بعض الأخبار عن مجالـــسته لهـــم وحضوره مجالسهم. ولكن حضوره إلى مجالسهم لم يجعله يتأثر بأفكارهم الشعرية، ولم نر من شعره المجون أو ذكر الخمر أو الانحلال، بل نجد فيه السمو والفخامة.

وكـــان الخريمـــي يُكثـــر من حضور مجالس الأدب في بغداد ومجالس المتكلمـــين، ولمحـــنا ذكر خبر ذلك في بيان الجاحظ الذي أكثر من النقل عنه، وتألق نجمه في عصر الرشيد والبرامكة[1].

- منزلته الشعرية:

لـــم يكـــن أبـــو يعقـــوب الخريمي مُقلاً، وخاض في جميع أنواع الشعر قـــبل غيـــره مـــن شـــعراء عـــصره، وتميز كثيراً في المدح؛ حيث إنه وسيلته للتكـــسب والعـــيش لكـــسب قـــوته. فلـــم يمـــدح إلا الكرام، واستمر على هذه الطـــريقة لـــيحفظ مـــاء وجهـــه من أن يمدح كل شخص من سائر الناس، فكان لا يمـــدح إلا مـــن يعـــرف كـــرمهم وأخلاقهـــم؛ وبـــذلك أصـــبح رفيقاً أنيساً عـــندهم، ولـــه بـــاع طـــويل في المدح، وسار فيه على النهج العربي المألوف للشعر المختار، وتأثر به شعراء كبار.

ولـــه مراثـــي كثيـــرة فـــيمن مـــدحهم ســـابقًا عند الوفاة إخلاصًا لهم وحـــبًا فـــيهم، وأســـفًا ولـــوعةً لفقـــدانهم، فقد آلمه فراقهم وأحزنه فرثاهم وفاء لهـــم بمراثـــي صـــادقة المعانـــي خارجه من القلب ومعبرة أصدق التعبير عن صـــدق أحاسيـــسه ومـــشاعره، وأعجـــب الـــشعراء والنقاد والباحثون على مر العـــصور بمـــراثيه، وذكـــر أحمـــد بن عبيد بن ناصح أنه قال لأبي تمام وكان يجيء المسجد الجامع ينشد أشعاره، أخبرني عن قولك:

---

(١) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ط١٧، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٧م، ص٣٥٥.

كـــأنَّ بنـــي نـــبهانَ يـــومَ وفاتِـــهِ نجـــومُ سماءٍ خرَّ من بينِهـــــا البدرُ

أردت أن تـصف حـسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ قال: لا والله سوء حـالهم لأن قمرهم قد ذهب. فقلت: والله ما تكون الكواكب أحسن حالاً إلا إذا لم يكن معها قمر، ألا قلت كما قال أبو يعقوب إسحق بن حسان الخريمي:

بَقـيةُ أقمـــار مـن الغـرّ لَـو خبت لَظَلَّـت معـــدّ فـي الدُجـى تتَسكَّعُ

إذا قَمَـرٌ منهـا تَغـــوَّر أو خَبـــا بَـــــدا قمـر في جانِب الأُفـــق

قال: فوجم وسكت.(١)

ولقـد لاحـظ معاصـروه بـأن مديحـه تفوق على رثائه، فسألوه عن سـبب ذلـك فـي أكثـر من مناسبة وكان جوابه واحداً: "كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد".(٢)

ولـه أغـراض شـعرية أخـرى مثل الفخر بِنَسَبِه ودفاعه عنه وحسن الـضيافة والحكمـة وكـذلك الغـزل، ولكن لم يصل إلينا منه إلا اليسير، وله كذلك في الهجاء والشكوى في رثاء عينيه وابنه وأخيه شيء كثير.

وكـذلك رائيـته الـرائعة فـي رثـاء بغـداد في الحرب بين المأمون والأمـين وتـصويره للأحـداث وما جرى في بغداد وصفاً دقيقاً، وكأنه يسرد قصة من فصول عدة في أحداث متسلسلة.

وبقـي ملازمـاً لعمـود الـشعر، ولـم يبتعد عنه إلا في حدود ضيقه، وهـو مـن الـشعراء المطبوعـين، ففـي كتاب الآمدي للموازنة بين شعري البحتـري وأبـي تمـام فعـندما أراد وصـف البحتري قارنه بشعر الخريمي،

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، أكتوبر سنة ١٩٦٦م، الجزء الرابع، المجلة الحادي والأربعون، ص٦١٢.

(٢) الشعر الشعراء، ابن قتيبة،ج٤، ص٦١٤.

وأقره كذلك القاضي الجرجاني، وكان المبرد معجباً بالخريمي وقد ذكرت رأيه فيه سابقاً، وقال ابن الجراح إنه: "شاعر متقدم مطبوع له أشعار طوال مدائح وكلام عذب حسن"(١).

ومن أشد المعجبين به أبو حاتم السجستاني حيث قال: "الخريمي أشعر المولدين(٢)".

والخريمي شاعر من كبار شعراء العربية، ولكن لم يأخذ حقه، وكان معروفاً لدى الخاصة أكثر منه لدى العامة، وتضاءل ذكره واختفى مبكراً، ولم ينل نصيبه من الشهرة كغيره من الشعراء.

- وفاته:

تُوفي شاعرنا أبو يعقوب الخريمي سنة ٢١٤هـ في بغداد بعدما أسن؛ حيث إنه عمى في آخر عمره وأقعده العمى عن عمر يناهز ٨٠ عاماً تقريباً حيث إنه لم يعرف تاريخ ميلاده أو مكانه.(٣)

وزعم بعضهم أنه توفي وله من العمر ٧٠ سنة(٤).

١- شعره في عاهة العمى:

هنالك عدد غير قليل من أعلام الفكر والأدب والثقافة العربية المشهورين عبر التاريخ العربي ممن ابتلوا بفقدان البصر، سواء قبل ولادتهم أم بعدها، وقد اشتهر منهم في مشرق العالم العربي ومغربه أعلام ذاع صيتهم ذيوعاً واسعاً، مثل سعد بن أبي وقاص وبشار بن برد

---

(١) البغدادي، ص٣٢٦.

(٢) الورقة، أبو عبدالله محمد بن داود بن الجراح، تحقيق: الدكتور/ عبدالوهاب عزام، عبدالستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ص ١٠٣.

(٣) الديوان: ص٦، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ص٤٦٨.

(٤) تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، المجلد الثاني، ص١٢٠.

وأبي العلاء المعرّي وسليمان بن مسلم صريع الغواني وعليّ بن جبلة وشمس الدين الذهبي من أهل المشرق، والأعمى التُطيلي وأبي القاسم السهيلي وأبي الحسن بن سيدة، وأبي القاسم الشاطبي، والأعلم الشَنْتَمري من أهل الأندلس.

وقد عني مؤرّخو الأدب ومؤلّفو كتب التراجم بالتعريف بهؤلاء المكفوفين، وتوسّعوا في سيرهم وأخبارهم وما صدر عنهم من أدب وفكر، وتحدّثوا في أحيان كثيرة عن ذكائهم وقدرتهم على الاتصال بمحيطهم، مثلما تحدّثوا عن معاناتهم بسبب إصابتهم بفقدان البصر.

"لم يشغل الشاعر الكفيف كما شغلته عاهته، فهو لا يفتأ يذكر العين ولوازمها، وما يحيط بها ويتعلق، مستغرقا في وصفها مما يتلقاه من حوله وما يقرؤه عليه غيره من شعر أو نثر".(١)

ومن بين هؤلاء الأعلام شاعرنا الخريمي الذي قال في عماه بعدما أسن(٢):

فإن تك عيني خبا نورها	فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبي ولكنما	أرى نور عيني إليه سرى
فأسرج فيه إلى نوره	سراجا من العلم يشفي العمى

وفي هذه الأبيات بيان لنفس الشاعر، وشعوره بما أصيب به، فالكثير غيره أصيبوا بالعمى مما يخفف عنه ذلك، ولكن المشكلة ليست في فقد البصر، بل المشكلة في ألا يكون القلب منيرا، وفي حالة شاعرنا تحول نور بصره إلى قلبه ليعوضه، وأشعل فيه سراجا من نور العلم يشفي عماه ويعوضه عنه.

---

(١) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١١٥

(٢) الديوان: ١١

و" بعد أن استحكمت العاهة، وتوطنت النفس، ورضيت، بل اضطرت للإذعان والرضا كارهة حزينة قال الخريمي يصف حياته بعد الإذعان والخضوع: [1]:

كفى حزنا أن لا أزور أحبتي من القرب إلا بالتكلف والجهد

وإني إذا حييت ناجيت قائدي ليعذلني قبل الإجابة في الرد

يأسف الشاعر على فقده بصره، ويسوّغ هذا الأسف بأنه حزين بأنه لا يزور أصحابه إلا بجهد كبير، وأنه يعتمد على من يقوده ليعدله حين يريد رد سلام.

وتعدى بؤسه إلى أن نفسه تتقاصر عن إبداء ما يريد في مجلس يفيض به الحديث، وكأنه غريب بين الجلساء إذا لم يعطوه حقه عن وفاء منهم، وعهود سابقة:

إذا ما أفاضوا في الحديث تقاصرت بي النفس حتى ما أحير وما أبدي[2]

كأني غريب بينهم لست منهم فإن لم يحولوا عن وفاء ولا عهد

ولذلك وبسبب معاناته الشديدة بالعمى فإنه يقاسي أنواع الخطوب التي تنوء بحملها كواهل الرجال، ولا يستطيع تحملها إلا صاحب الجلد والمراس:

أقاسي خطوبا لا يقوم بحملها من الناس إلا كل ذي مرّة جلد[3]

" ويبدو أن حياة الخريمي بعد عاهته كانت صعبة لا تحتمل، ضيقة لا تطاق يصح فيها ما قاله الصفدي: " ما أشد العمى على من كان بصيراً "[4]

---

(١) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١١٥

(٢) الديوان:٢٣

(٣) الديوان:٢٣

(٤) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١٠٢، انظر: نكت الهميان: ٣٩

فهو الفتى الذي يتوازن فيه الباطن والظاهر، ففي ظاهره ظرف، وفي باطنه التقى فكلاهما مما يزين الإنسان:

فتى جهره ظرف وباطنه تقى يزين ما يخفي بصالح ما يبدي

ويكرر في قصيدة أخرى يذكر فيها عماه فكرة اعتماده على قائده في التعرف عمن يحيّيه، فهو يريد برده التحية أن يفصل بين الشرفاء والعامة" فلم يألف الشاعر الكفيف بعد عاهته، كما يألف أن يكون بينه وبين محدثيه، وبين عالمه وسيط "[1]:

أصغي إلى قائدي ليخبرني إذا التقينا عمّن يحييني[2]

أريد أن أعدل السلام وأن أفصل بين الشريف والدون

وتتصارع عنده عاهة العمى بالسمع الذي يعوضه عنها، والسمع عنده غير مأمون، فهو يسمع ما لا يستطيع رؤيته فيكرهه:

أسمع ما لا أرى فأكره أن أخطئ والسمع غير مأمون[3]

ثم يبدأ بالتحسر على فقدانه للبصر، ويرجو لو أن الدهر يواتيه لعودة منه، ولو خير بين البصر وبين بنيان نوح، وملك قارون لما اختار غير البصر:

لله عيني التي فجعت بها لو أن دهرا بها يواتيني[4]

لو كنت خيرت ما أخذت بها تعمير نوح فى ملك قارون

---

(١) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١٠٣

(٢) الديوان: ٦١

(٣) الديوان: ٦١

(٤) الديوان: ٦١

ونـراه فـي خـتام قـصيدته مستـسلما طالبا للعون من أصحابه الذي من حقـه علـيهم أن يعـودوه، وأن يواسـوه بمصابه، وأن يعزوه، بل وأن يبكوه أيضا:

حـــق أخلائي أن يعودوني وأن يعـــزوا عني ويبكوني[1]

"وحـين كـف بـصره بعـد إبصار. قال يهدئ الذات من الفزع والجزع، مـوجها عـزاءه لحاسـته ذاتهـا. فـلا زالـت عند الكفيف بقية حياة بعد هذا الفقدان[2]:

عزاءك يا عـــين لا تجزعي وضـــنا بمائك لا تدمعي[3]

عزاء وصـــبرا فإن الأسى كثـــير وإن حياتي معي

وفـي بيتـين لـه يذكـر فـيهما العمـى يبـين أن فقدان الإنسان لبعضه يـستدعي بكـاء الباقـي مـنه، وأن طبيبه يمنيه بالشفاء من العمى، ويلجأ إلى ربه بكونه الطبيب الوحيد الذي يستطيع شفاءه:

إذا ما مات بعضك فابك بعضا فإن البعض من بعـــض قريب[4]

يمنـــيني الطبيب شفاء عيني وهـــل غير الإله لها طبيب

وجـاء مـن الـشعر المنـسوب إلـيه ذكر للعمى، وفيهما يبحث عن المعـوض عـن العمـى علـى عـادة الـشعراء المكفوفين، فقد أخذ الله نور عيـنه، وعوضـه نـور القلـب واللـسان ؛ وأضاف إليهما العقل أيضا" وتتخذ إسـقاطات الـشاعر الكفـيف مـن البصيرة سلاحا لمواجهة الضعف والشعور بالـنقص فالعقـل – لديـه – أمـضى وسـائل المكفـوف في المواجهة البت

---

(١) الديوان:٦١

(٢) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١٠٢

(٣) الديوان:٤٦

(٤) الديوان:٦٥

يسعى فيها لإثبات الذات، وتقوية العزائم، ثم مواجهة السخر أو الشفقة الاجتماعيين "[1] ، فضلا عن كون القلب ذكيا عنده، والعقل لا يداخله الخطأ، ولسانه صارم كالسيف:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور[2]

قلبي ذكي، وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وفي هذا " يلجأ الشاعر الكفيف إلى بعث كل الطاقات المدخرة في حواسه الأخرى بالشكل الذي يعوضه خسارته في البصر، وحين يرفض الشاعر الكفيف الاعتراف بالعين في تغذية الباطن بصورة الأشياء والوسط، فإنما يعزز هذا الرفض بإبراز عمل الوسائط الحسية الأخرى في عمله".[3]

وقد كان التعويض أحد مصادر الشعراء المكفوفين من أجل الخروج من مأزق العمى، ويبدو جليا شعور الكفيف بمرارة التعويض أحيانا، ولاسيما في شعر الغزل، وكأننا بهم يريدون إقناع حبيباتهم الحقيقيات أو المتوهمات بمساواة الحواس الأخرى بالبصر " ففي مقدور الأذن أن تسد مسد ذلك الفقدان الذي يهم المرأة الساعية لإغراء البصر الرجولي، يقول[4]:

قالت أتهزأ بي غداة لقيتها يا للرجال لصبوة العميان

فأجبتها نفسي فداءك إنما أذني وعيني في الهوى سيان

---

(١) الديوان: شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١٠٥

(٢) الديوان:٧٧

(٣) نقد الشعر: د. ريكان: ١٣١

(٤) الديوان:٧٣

ولا يخفى ما في البيت من تذلل مر، مرده شعور الكفيف المحروم من صد النساء وبعدهن، ولا يخفى ما في البيت من إنكار للعاهة، ثم محاولة إقناعها بتساوي الحاستين (العين والأذن) في دنيا العشق؛ لأن السبيل إليه تعلو على الرؤية والمشاهدة، وتسمو على الإبصار المادي لتعوض بالسماع الروحي ومداخلاته الوجدانية ".[1]

ويستحوذ الاهتمام بالعين على ذهن الشعراء المكفوفين، وقد رأينا الخريمي " في رثاء بغداد مكررا – في خطابه – الفعل (رأيت)، ومصورا بغداد وقد دميت عيناها "[2]:

يا هل رأيت الجنان زاهرة	**يروق عين البصير زاهرها[3]**
وهل رأيت القصور شارعة	**تكن مثل الدمى مقاصرها**
وهل رأيت القرى التي غرس الـ	**أملاك مخضرة دساكرها**
فإنها قد أصبحت خلايا من الـ	**إنسان قد دميت محاجرها**

٢- الرثاء :

معنى الرثاء لغة واصطلاحاً:

الرّثاءُ: من رثى فلان فلاناً، يَرْثِيه وَمرْثِيَةً إذا بكاهُ بعدَ موته.فإن مدحَهُ بعد موته قيلَ رثّاهُ، يرثيه وترثيه ورثيتُ الميتَ، رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً. ورثيتُهُ، مدحتُهُ بعدَ الموتِ وبكيتُهُ وثوتُ الميتَ أيضاً إذا بكيتُهُ وعدَّدتُ محاسنَهُ. وكذلك إذا نظمتُ فيه شعراً.

---

(١) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ٣٥-٣٦

(٢) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ١٣٠

(٣) الديوان: ١١٤

ويقال ما يرثى فلان لي، أي ما يتوجع ولا يبالي... ورثى له[1]: أي رقَّ له رثا الميتَ يرثوهُ رثواً: بكاهُ وعدَّدَ محاسنَهُ. ورثا الميتَ – يرثيه، رثياً ورثاءً ورثايةً ومرثاةً ومرثيةً: بكاهُ وعدَّدَ محاسنَهُ ونظمَ فيه شعراً.

رثى لهُ: رحمهُ ورقَّ لهُ. رثى عنه حديثاً رثايةً: ذكرهُ وحفظهُ.

الرثَّاءةُ والرثَّايةُ: النوَّاحةُ.

المرثاةُ: ما يرثى به الميتُ من شعرٍ ونحوهُ كالمرثيّةِ – جمع: مراثٍ. [2]

رَثا: يَرْثُو – رثواً الميتَ: بكاهُ وعدَّد محاسنَهُ. نَظَمَ فيه شعراً.

رَثَى – رَثْيَاً ورثاءً ورثايةً ومرثاةً والمرثية جمع: مراثٍ: ما يرثى به الميتُ من شعرٍ وسواهُ.

المراثي السبع: مختارات من أشعارِ العرب[3]، و رثاءُ الميتِ: من رثى. رَثا الميتَ: مَدَحَهُ وبَكى عليهِ. رثيتُ الميتَ رثياً ورثاءً ورثايةً ومرثاةً[4] ومرثيةً.

القيام بدراسة وافية حول تاريخ الرثاء وتعيين أول من رثى هو أمر صعب جداً؛ لأنّ الرثاء ينبع من أعماق النفس عند إلمام النائبة وفقد الأعزاء، والرثاء يمثل الآلام الباطنية في صورة ألفاظ وعبارات محرقة

---

(١) القاموس المحيط- الفيروز أبادي – ت: ٨١٧ هـ – نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية – ١٣٠١ هـ – الهيئة المصرية العامة للكتاب. مادة (رثى).

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ – مكتبة الخانجي – مصر – ١٩٩٨ ٤٢/١ والحيوان- الجاحظ – مكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر – ط١ – ١٩٥٠ – ٢/ ٢٠.

(٣) نقد الشعر – قدامة بن جعفر – مطبعة الجوائب – قسطنطينية – ط١ – ١٣٠٢: ١١١.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيرواني – ت: محي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت لبنان – د ت – ٣٥٨

بحيث تؤثر في سامعيها تأثيراً مَضضاً ومؤلماً. فإذا لا نستطيع أن نحدّد زماناً خاصاً لبدء الرثاء في تاريخ البشر؛ لأنّ الإنسان قد عاش من بداية حياته على الكرة الأرضية مع الكوارث والنوائب والحوادث المؤلمة التي تهز القلب هزاً شديداً، وكان لتلك الحوادث تأثيرها العظيم في النفوس.

والإنسان في الشوط الأول من تاريخه كان يعبّر عن نفسه الحزينة بألوان شتى وبألفاظ مختلفة، و أظن أنّ هذا التعبير في بدايته كان أصواتاً أو ألفاظاً قريبة الوزن دون أن تكون لوناً من ألوان الأدب، ومع مرور الزمن تحولت إلى العبارات الموزونة التي كانت النساء يرددنها عند المصائب ويخففن بها من آلام القلوب.

وأنا لست بصدد بحث تاريخيّ من هذا النوع ولكنني أقصد بحثاً تاريخياً حول الرثاء المكتوب في الأدب العربي ولنبدأ دراستنا من العصر الجاهلي لأنّ مستنداتنا في الأدب العربي، مهما كان، تبدأ تاريخياً من العصر الجاهلي إلى حاضرنا الراهن.

وما بقي لنا من الأدب الجاهلي يبلغ تقريباً تسعا وأربعين قصيدة، وينقسم إلى مجموعات سبعة وهي: المعلقات ــ المجمهرات ــ المنتقيات ــ المذهبات ــ المراثي.

مهما كان الأمر، فقد نشأ الرثاء في تاريخ الإنسان وسلك طريقه في الألسنة واللغات كلّها ولاسيما في اللغة والأدب العربي. وبدأ ينمو ويتطور بأيدي الأدباء.

والرثاء من الموضوعات البارزة في الشعر العربي، وهو يأخذ ألوانا ثلاثة:

١- الندب: وهو بكاء الأهل والأقارب إذا عصف بهم الموت.

٢- التأبين: وهو ثناء على الميت وتعديد فضائله.

٣- العزاء: وهو مرتبة عقلية فوق التأبين، ينفذ فيها الشاعر من حادثة الموت الفردية إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به التفكير إلى معان فلسفية عميقة.

والرثاء من أهم الأغراض الشعرية وأكثرها صلة بالنفس البشرية والتصاقاً بالوجدان الإنساني، وتعد المراثي من الأبْواب المقروءة في شعرنا العربي؛ ذلك أنَّ النَّفس البشريَّة مجبولةٌ على ما يُثير عواطِفها ومشاعِرَها، والرِّثاء يُخاطِب العواطف والمشاعر والقُلوب، ويهدف إلى تعْداد مناقب الرَّاحل الغالي، وإظْهار التفجُّع والتلهُّف عليه واستعظام المصيبة فيه وقد تميَّز شعراء العربيَّة دون غيرهم ببراعتِهم في الرثاء؛ لما لديْهم من رهافة الحسِّ ورقَّة المشاعر، وأجادوا في هذا المجال، حتَّى صارت مراثيهم -الَّتي شمِلَت الأنفُس والأبناء والزَّوجة والأمَّ، والعلماءَ والأبطالَ والأشْخاص والبلْدان - من عيون الشِّعْر، الَّتي تترك أثرَها في نفس القارئ والمستمِع[١]

وتتوزع مراثي شاعرنا الخريمي في ديوانه على مجموعة موضوعات منها: رثاء الأعضاء في حديثه عن عماه وفقده لبصره، ورثاؤه لأخيه، ورثاؤه لرجل يدعى أبا يوسف، ورثاؤه لخريم بن عمارة في قصائد عدة، ورثاؤه لابنه أحمد، وقصيدة رثائه منسوبة إليه في قتل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، وأهم قصيدة رثائية له قصيدته في رثاء بغداد، وهي أطول قصيدة من قصائده.ونراه في رثائه لأخيه يظهر لوعة فراقه، فيخاطب عينه ألا تبخل بالدمع رغم سخائها، وما ذلك إلا لأنه الحبيب الذي لا يسلى، والذي يبقى خياله ماثلا أمامه وخلفه وفي

---

(١) جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب – أحمد الهاشمي – مؤسسة المعارف – بيروت – لبنان – طبعة جديدة ومنقحة – ت: لجنة من الجامعيين.

مقامه ومقعده، والواضح صدق المشاعر التي ملأت حياته بكل تفاصيلها التي عبر عنها بقوله[1]:

أقول لعيني إن يكنّ ملّ مسعدي فأيتها العينُ السخيةُ أسعدي
ولا تبخلي – عيني – بدمعك إنه متى تُسبلي لي رقّ دمعي وتَجْمُدي
وكيف سلوي عن حبيب خياله أمامي وخلفي في مقامي ومقعدي

ونراه يصف حالته حين رأى أخاه مسجى على نعشه، حيث جاشت نفسه فكانت بين الحزن والتصبر الذي يقتضيه الحزم والتجلد من رجل مثله في قوله: [2]

نظرتُ إليه فوقَ أعواد نعشه بمطروفة حيرى تجور وتهتدي
فجاشتْ إليَّ النفسُ ثم رددتُها إلى الصبر فعلَ الحازمِ المتجلدِ

ولقرب الميت من أخيه، فإنه يود لو يفتديه بنفسه وكل ما يملك، ولكن هيهات فالميت لا يفتدى:

ولو يُفْتدى ميتٌ بشيءٍ فديتُه بنفسي ومالي من طريفٍ ومُتلدِ[3]

والملاحظ على هذه المرثية القصيرة أنها جمعت بين الحزن على الفقيد، والتجلد والصبر على فراقه، وتمني فدائه، ويظهر لي أنها مقتطعة من قصيدة طويلة ضاع جلها مع ما ضاع من شعر للخريمي ؛ وما ذلك إلا لعدم اكتمال ما تواضع عليه القدامى في مراثيهم، ولاسيما للقريبين من الأهل.ونراه في قصيدة أخرى يرثي القاضي أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة وقاضي الرشيد في مرثية قصيرة يذكر فيها الميت ويمدح ابنه في الوقت نفسه على عادة من يتأسون بالفقد بالأبناء

---

(١) الديوان:٤٢
(٢) الديوان:٢٤
(٣) الديوان:٢٤

الذين يحملون الراية بعد آبائهم، فقد سمع أحدهم يقول بعد وفاة أبي يوسف: اليوم مات الفقه، فأنشد قائلا[1]:

يا ناعي الفقه إلى أهله إن مات يعقوبُ وما يدري
لم يمتْ الفقهُ ولكنّهُ حُوِّلَ من صدر إلى صدر
ألقاهُ يعقوبُ إلى يوسف وآلَ من طيبٍ إلى طهرِ
فهو مقيمٌ فإذا ما ثوى حلّ وحلّ الفقهُ في قبرِ

ويبدو أن شاعرنا هنا أراد مدح الابن بصيت الأب ومكانته، ورد على مقولة ذلك الرجل مستغلا هذه الفكرة للتعبير عن مشاعره تجاه ممدوح ومرثي معا، فقد جمع بينهما في مقطوعة قصيرة، وهذا ما لا يتأتى إلا لذوي الشاعرية العالية.

وكان من أكثر من قال فيهم شعرا في مدح أو رثاء خريم بن عمارة، فقد رثاه في قصائد عدة كما أسلفت، و ومنها عينية تقطر إحساسا بدأها بوداع الحبيب، وحلول الموت الذي لا يمكن دفعه:

قضى وطرا منك الحبيبُ المودِّع وحلّ الذي لا يُستطاعُ فيدفع[2]

ثم بدأ بوصف تنازع مشاعر الحزن والتجلد في نفسه، وضياعه بينهما:

وأصبحت لا أدري إذا بان صاحبي وغودرتُ فردا بعده كيف أصنع[3]
أأفني الحياةَ عفةً وتجلدا بعافية، أم أستكين فأهلع
بلى قد حلبت الدهرَ أشطرَ دَرِّه فأبصرتُ منه ما يضر وينفع
فأيقنتُ أنَ الحيَّ لا بدَّ ميتٌ وأن الفتى في أهله لا يُمَتَّعُ

---

(١) الديوان:٣٩

(٢) الديوان:٤٠

(٣) الديوان:٤٠-٤١

وفي هذا انتصار لفكرة التجلد بالرضا بحكم الله النافذ فينا، وذلك بسبب كثرة الحادثات التي مرت على شاعرنا فالصبر خير له؛ لأنه قنع بأن الجزع غير مجد، فقد تملكته الدموع، ثم ردها إلى عينه، ولكن عين القلب دامعة:

وقالوا: ألا تبكي (خريم بن عامر) فقلت:وهل تبكي الذلول الموقَّع[1]
لقد وَقَذَتْني الحادثاتُ فما أرى لنازلةٍ مِنْ ريبها أتوقَّع
صبرتُ وكان الصبرُ خيرا مغبةً وهل جزعٌ مُجْدٍ عليَّ فأجزع
ملكت دموع العين حتى رددتها إلى ناظري إذ أعيُن القلب تدمع

ثم بدأ بسرد مناقب الفقيد، وعلاقته به، و أياديه البيض عليه، فوصفه بالليث، والبدر الساطع، والباسل، وذلك في وصفه لوضعه في القبر الذي وصفه بالحفيرة، وفي هذا الوصف معنى كبير المقصود منه أن الأرض كلها كانت ميدانا لهذا الليث يصول فيها ويجول بأمجاده، ثم تكون نهايته في حفيرة صغيرة، و قام شاعرنا بتصغيرها ليظهر عمق علاقته بهذا الكبير الذي احتواه قبر صغير، وأفعاله تشهد له بالعظم، وهو خليفة أبيه في السمو ومساعدة الناس إذا تناوشتهم الشرور :

أعزت خطوب الدهر نفسا صليبةً لما نابها من حادث لا تَضعضع[2]
ألم ترني أبني على الليث بيتَه وأحثو عليه التُرْبَ لا أتخشّع
أردُّ حواشي بُرْدِهِ فوق سنّة إخالُ بها ضوءًا من البدر يَسطع
كأنّيَ أبني في الحُفَيْرَةِ باسلًا عفيرًا ينوء للقيام ويضرع
تخال بقايا الروح فيه لقربه بعهد الحياة وهو ميت مقنع
وكان (خريم) من أبيه خليفة إذا ما دها يوم من الشر أشنع

---

(١) الديوان: ٤١ – ٤٢

(٢) الديوان:٤٢

ويستعير من الطبيعة شمس الضحى وصفا لفقيده الغالي التي تذكره بطلعة وجهه حين طلوعها:

تذكرني شمسُ الضّحى نورَ وجههِ فلي لحظات نحوها حين تطلع[1]

ثم يظهر فضله عليه ؛ حيث كان له الذخر في كل ملمة، والمنايا تختار الذخائر من البشر:

وأعددته ذخرا لكل ملمـــة وسهم المنايا بالذخائر مولع[2]

والفقيد عنده بقية أقمار نورها طاغ، ولو خبت لضاعت (معد)، وفي هذا مبالغة واضحة تظهر عظيم قدر الفقيد عند شاعرنا:

بقيةَ أقمار من الغُرِّ لو خبتْ لظلّت (معد) في الدّجى تتسكّع[3]

ثم يعود بنا في نهاية القصيدة إلى التنازع بين البكاء والتصبر، وانتصار الثاني على الأول، وينهي قصيدته بأن الصبر والاحتساب لا يمكن أن يزيلا المواجع من الصدر:

فلو شئت أن أبكي دمًا لبكيتـــه عليك ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسع[4]

وإني وإن أظهرتُ صبرًا وحِسْبةً وصانعت أعدائي عليك لموجع

ويبدو من هذه المرثية أن القلب متعمق في الوجدان، فيه نبض صادق بالمودة وتمازج في العواطف.. ورثاؤه له تعبير عن شفافية إنسانية وتصوير لمشاعر ذاتية، وأداء معبر عن شحنة الألم، وصورة ناطقة عن اتساع مساحة الفراق وتباعد الأحباب تباعدا حتميا لا يُرجى

---

(١) الديوان: ٤٣

(٢) الديوان: ٤٣

(٣) الديوان: ٤٣

(٤) الديوان: ٤٣– ٤٤

معه عودة غائب ولا لقاء راحل، ولا يبقى بعد ذلك سوى اختزان ذكريات حزينة تكاد لا تمحوها الأعوام .

وله قصيدة عينية أخرى في رثائه، ولم يخرج فيها عن معاني مرثيته السابقة كثيرا، غير أنه بدأها باستهلال من الحكمة التي مفادها أنه لا مرجع لما ولى من العيش، ولا خلود للنفس، ويتساوى في القدر المحتوم الحازم والعاجز، ولا جار يلتجئ إليه المرء مما حل من القضاء، وعلى الرغم من الحسرة التي كان يعانيها لفقده أملى عليه الموقف المأساوي التفكير في أحوال الدنيا وكيف أنها لا تدوم على حال من الهناء أو الشقاء، فكما جاء إليها الإنسان فإنه سوف يرحل عنها، فقد طُبعت على كدر ونحن نريدها صافية لا كدر فيها، وهذا ضدّ طبيعة الأشياء، وفي ظل هذا التصور كان رثاؤه بقصيدة تنطوي أكثر أبياتها على الحكمة، و موت صديقه فجّر في ذاته هذه المشاعر الإنسانية، فكانت قصيدته هذه التي ضمّنها فلسفته ورؤيته للحياة من حوله، وقد استعرض تجربته الطويلة التي أطلقت على لسانه باقة من الحكم، عرفت عنه بحكم معايشته للأحداث التي مرت به؛ مما جعل لهذه القصيدة صدى واسعا في نفس المتلقي؛ لأنها تعبر عن الحقيقة التي يجهلها كثيرون من الناس أو يتجاهلونها، ولأهميتها وما تحمله من عِبَر استمرت أبيات الحكمة التي تتحدث عن الموت إلى التحسر على الإنسان الذي يغتال عقله ؛ لأنه لابد أن يعي وجه السداد ويسمعه:

ألا هل لما ولّى من العيش مرجعُ وهل في خلود النفس للنفس مطمع[1]

وهل حازمٌ إلا كآخر عاجزٍ إذا حلّ بالإنسان ما يتوقع

وهل تقتدي نفس بنفس عزيزة على أهلها، أم هل لما حُمّ مرجع

---

(١) الديوان:٤٤- ٤٥

وهل للفتى جارٌ يجنّبه الردى فيصبح فيه آمنا لا يروّع
تراه عزيزًا حين يصبح قانعا وتلقاه عبدا ضارعا حين يطمع

ثم يعود إلى ذكر عبرات الفقد التي يراها غير نافعة على من فارقوا وودعوا، وأنه يناديهم وبينه وبينهم أرض فلا يسمعون صوتا ليجيبوا، فقد سبقوه في الرحيل، وتركوه ينتظر غايته التي لابد بالغها:

فهل تَنْفَعَنّي عَبرةٌ إن سفحتُها لفقدِ أناس فارقونا فودعوا[1]
أناديهم والأرض بيني وبينهم ولم يسمعوا صوتي أجابوا فأسرعوا
مضوا سلفا قبلي فَخُلِّفْتُ بعدهم إلى غاية مبلوغة ثمّ أتبع

ونراه يكرر ما جاء في قصيدته السابقة من سؤال الناس له البكاء على صاحبه الفقيد، فيجيب بالإثبات إذا كان ذلك مجديا، وأنه سيبكيه ؛ لأن بكاءه حق عليه، وسيفيض دمعه مدرارا، ثم يسوّغ ذلك الحق بأنه يستحق ذلك لأنه سد حاجته وحاجة غيره، وفي هذا المعنى اختلاف عن القصيدة السابقة التي منع فيها بكاء العين فيها بكاء القلب، ولأنه أحرى به التجلد والصبر إذا تنازعه الحزن، والتجلد، وذلك في قوله: [2]

وقالوا: ألا تبكي (خريمَ بنَ عامرٍ) فقلت: بلى، إن كان ذلك ينفع
سأبكي (أبا عمرو)، وحقّ بكاؤه بمطروفةٍ عبرى تفيض وتدمع
وأبكي (أبا عمرو) لضيفٍ مدقّع وذي حاجة أعيى بها كيف يصنع
وكان لسانَ الحيِّ (قيسٍ) ونابَها وكانت به (قيسٌ) تضرّ وتنفع

---

(١) الديوان:٤٥
(٢) الديوان:٥٥

ورثاه في لامية أخرى بدأها بالحديث عن صبره على فراقه، وهو الذي يفتدى بالأهل والمال، وأنه رأى الصبر وسيلته المجدية، وقرنها بالرجولة[1]:

أم ترني صبرتُ على خريمٍ وكان فداؤه أهلي ومالي
ولو أني شللت من يميني لأفردت اليمين من الشمال
ولكنّي صبرتُ عليه إنّي رأيت الصبر أحجى بالرجالِ

ثم بدأ بتعداد مناقبه، فقد حاز المكارم من طفولته، وكملت له المعالي في شبابه، وأنه بنى لقومه عزا لا تنقض دعائمه، وسيبقى بقاء الراسيات من الجبال، وكرر معنى ورد في مرثية سابقة أنه كان خليفة لأبيه في النهوض بالثقال من الملمات:

فتى حاز المكارم وهو طفل وأورى يافعا زند المعالي[2]
وشاد لقومه مجدا سيبقى بقاء الراسيات من الجبال
وكان لنا الخليفة من أبيه لينهضَ بالملمّات الثقال

وينهي قصيدته بالدعاء المشهور عن العرب: لا تبعد بصيغة النهي، ومعناه هنا أن أعمالك الجليلة باقية فينا رغم رحيلك، ومجدك الذي تركته بيننا لا يبلى، وإن بليت أنت:

فلا تبعَد، فكلّ فتى أناسٍ سيَفجعهم به صرف الليالي[3]
فإن تك للبِلى أمسيتَ رهنًا فقد أبقيتَ مجدًا غير بالِ

وله في رثاء ولده أحمد قصيدة تقطر إحساسا، ومساحة الحزن حين تبسط ظلالها الكثيفة على روح الشاعر فإنه ينسج من هذه الكثافة

---

(١) الديوان: ٥٥
(٢) الديوان: ٥٥
(٣) الديوان:٥٥

المعتمة صورة حزينة لقلب جريح بفقد عزيز عليه، فكيف إذا كان هذا العزيز هو ابنه الذي يكبر أمامه وتنمو مداركه تحت آماله، ويعلّق عليه رجاءه بعد الله، فإذا به يفقده في لمحة خاطفة؛ مما يجهض آماله فيه ويقوّض تطلعاته نحوه، وتزداد الفجوة اتساعاً برحيل الفقيد وعدم ملئها لقلب الوالد المحزون بما يخفف لواعج الحزن ويأسو جراح الألم، فاذا كان الشاعر شديد الحساسية متوتّر الأعصاب مثل ابن الرومي فان تجسيد المصيبة يكون أبلغ وأعمق، فهذا الشاعر الموهوب يصوّر بالكلمة ما لا تستطيع تصويره الآلة المصوّرة، ويجسد الواقعة بكل أبعادها الحسية والمعنوية ومن جميع جنباتها في أبيات ملتاعة، ولذلك نجده عند وفاة ابنه أحمد في سنّ مبكرة جاشت أحاسيسه بالأحزان، فاستنفرت شاعريته الخصبة، فكان أن ترجم مشاعره الأبوية في قصيدة تنزف أبياتها بالدمع وعلى هذا المنوال تتوالى أبيات القصيدة التي تفيض بلوعة الحزن الملتهب وتدل على أنها صادرة عن شاعرية قادرة على تصوير الأحزان وتجسيد المآسي، إلى جانب رسم المشاهد وفق نمط يجعلها ناطقة بالحدث مستوفية لمعالم الصورة، والإنسان إذا فقد ابنه الذي هو جزء منه وبعض من تكوينه وهو في ذاته مرتبط به عاطفياً وإنسانيا، فإنه لا يجد ما يفزع إليه للتنفيس عن مُصابه فيه سوى البكاء أو الرثاء إن كان من القادرين عليه نثراً أو شعراً، وفي بكائه أو رثائه ما يخفف حدة الفاجعة التي قد تكون هدّت جسمه وجرحت قلبه، كما فعل الخريمي في رثائه لابنه وقد كان يشاهده يصارع سكرات الموت أمامه، وهو لا يستطيع أن يخفّف آلامه ولا أن يرد عنه أجله المحتوم، لكنه قد استطاع أن يرسم له صورة واقعية عن مشاعره تجاهه، فنراه يبين رزأه بأحبة سبقوا ولده، وأنه قاسى من ملمات الزمان وكرباته، وكان يغري نفسه

بفقدهم جميعا، ولكنه في ولده مسلوب العزاء، ولم يعد الصبر قادرا على لملمة نفسه المعذبة فهو كالجمرة لها لهب في قلبه يتأجج باستمرار ولا يتوقف:

أعاذلُ كم من منفس قدر رُزِئْتُه وفارقني شخص عليَّ كريمُ[1]
وقاسيتُ من بلوى زمان وكُرْبَةٍ وودّعني من أَقْرَبَيَّ حميمُ
فعزيت نفسي غير أنّي بأحمد بنيَّ لمسلوب العزاء سقيم
أرى الصبرَ عنه جمرةً مستكنّةً لها لهبٌ في القلبِ ليس يَريمُ

ثم يبين حاله بعد فقد ابنه فحياله لا يفارقه، ويفض مضجعه، والهموم لا تنجلي بفراقه:

وخطّ خيالٌ منه يعتاد مضجعي له كرب ما تنجلي وغموم[2]

وكل ما في البيت من آثار الفقيد يذكره به، فيديم أحزانه، ويؤجج لهيبها:

وآثارُه في البيت حيث توجّهت بي العينُ حزنٌ في الفؤاد مقيمُ[3]

ثم يعود بنا إلى الحديث عن الصبر كما جاء في مرثياته السابقة، فهو يرجوه دائما، ولكنه يأبى هذه المرة أن يكون مسليا:

إذا رمتُ عنه الصبرَ أرجو ثوابه أبى الصبرَ قلبٌ بالحميم يهيم[4]
لَعمرُك إني يوم أدفِنُ مهجتي وأرجع عنه صابرًا لكظيم
وإن فؤادي بعده لمفجَّعٌ وإنّ دموعي بعده لنجوم

وفي البيت السابق يبين مدى الحرقة التي آل إليها، ففؤاده مفجوع على فقده، ودموعه كثيرة كثرة النجوم، ويبدو أن اختيار النجوم للتعبير

---

(١) الديوان: ٥٦
(٢) الديوان:٥٧
(٣) الديوان:٥٧
(٤) الديوان:٥٧

عن الدموع جمع بين الكثرة، وبين ظهورها لامعة في عينيه كالنجوم في السماء، ثم يذكر دفنه له، وكيف تحول القبر إلى مكان إقامة دائمة له ؛ لينتقل إلى دار أخرى غير داره، وعالم آخر غير عالمه، بعد أن كان مصدر فرحه، ولكن الفرح لا يدوم:

خَططتُ له في التُّربِ بيتَ إقامَةٍ إلى الحشر فيه والنشورُ مقيم[1]

وكان سرورًا لمْ يَدُمْ لي وغبطةً وأي سرور في الحياة يدومُ

ويظهر الأسى على فقده لابنه وقد خرج من الشباب ليدخل الشيخوخة، وفارق بفقده حلو العيش، ولم يبق له من الدنيا إلا المصائب والخطوب الجسام بعد أن فجع بفقده، فكل حياة بعده، وكل سرور مذموم عنده.

على حينَ أمضيت الشباب وقاربتْ خطاي قيود الشيب حين أقوم[2]

وفارقت حلو العيش إلاّ صبابةً عليها خطوب الحادثات تحوم

فُجِعْتُ بشِقِّ النفس والهمّ والهوى عذاب لعمري في الحياة أليمُ

ويسوّغ صبابته وحزنه أمام من يعيبون عليه ذلك من أصدقائه مخاطبا ولده الفقيد بالتأسي بيعقوب النبي عليه السلام وقد كان حكيما، ولكنه كان يظهر حزنه وكمده على فراق ولده يوسف عليه السلام، فقد اكتوى بالحزن، وتوقدت بحزنه النيران في قلبه المكلوم، فلم يعيّره خالقه العظيم على حزنه وبكائه:

يَعيبُ عليَّ الأخلياءُ صبابتي وحزني وكلٌّ – يابنيَّ – يلوم[3]

فهلْ كانَ (يعقوبُ) النبيُّ بحزنه مليمًا، وما يزرى عليَّ حكيمُ

---

(١) الديوان:٥٧

(٢) الديوان:٥٧

(٣) الديوان:٥٧

كوى قلبَـهُ حزنٌ كأنَّ لهـيبَه توقَّـدَ نيـرانٍ لهن ضريم
فما عيَّـر اللهُ النبيَّ بِحُزنـه أبى ذاك رب العالمـين رحـيم

ويختتم مرثيته بالأجر بالتصبر، فلولا رجاء الأجر بالتصبر على فقده ولده الذي يعتقد أنه سيكون قربانا عند خالقه نافعا يوم الحساب لكان حزنه أضعاف ما هو عليه الآن، وفي ذلك ما يدل على حكمة الشاعر وإيمانه بالقدر رغم ما يظهر من حزن غير مذموم على فقد أعز الناس:

فلولا رجاءُ الأجرِ فيكَ وإنّه ثوابٌ وإنْ عزَّ المصابُ عظيمُ[1]
وإنّكَ قربانٌ لدى اللهِ نافعٌ وحظٌّ لنا يومَ الحساب جسيمُ

- **رثاء المالك الزائلة:(قصيدة رثاء بغداد):**

عرف الأدب العربي رثاء المدن غرضًا أدبيا في شعره ونثره. وهو لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة.

وهذا النوع من الرثاء لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب ولكنه يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك تارة والعصور تارة أخرى،بل قد يرثي الدولة بأسرها؛ كما حدث ذلك في الأندلس .

وقد تميز هذا الغرض من رثاء المدن في الشعر أكثر من تميزه في النثر، ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثة، ذلك أن الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى آخر، وإذا ألم بمدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام عابر. ولعل بكاء الجاهلي على الربع الدارس والطلل الماحل هو لون من هذه العاطفة المعبّرة عن درس المكان وخرابه.

---

(١) الديوان:٥٧ – ٥٨

وقد عرف المشرق قدرا من هذا الرثاء شعرًا، عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون.

فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناخًا صالحا ليعيثوا فسادا ودمارا، وعبر الشاعر أبو يعقوب إسحق الخريمي، عن هذه النّكبة في مرثيته لبغداد، وتعد مرثيته لبغداد بعد أن آلت إلى شر مستطير في فتنة الأمين والمأمون سنة ١٩٧هـ من روائع رثاء الممالك، وهي من القصائد الأول في هذا المجال، بلغت مائة وخمسة وثلاثين بيتا، وقد جمع في كل ما يمكن ذكره حول تلك الفتنة، ووصف ما حل بالمدينة بعد هذه الفتة، و بدأ قصيدته بتساؤل يعبر عن حرقته: لماذا يلعب الزمان ببغداد، فهي كالعروس التي يشتاق إليها الفتى، وهي كجنة الخلد ؛ تدر على أهلها النعيم الذي قلّ معه المعسرون، وهي لقومها روضة زاهرة:

قالوا: ولم يلعبِ الزمانُ ببغـ ... دادَ وتعثُرُ بها عواثـرها[1]

إذ هي مثل العروس باطنُها ... مشـوّق للفتى وظاهرها

جنـّة خُلـد ودار مَغْبَطَةٍ ... قلّ من النائبات واترها

درّت خلوف الدنيا لساكنها ... وقلّ معسورها وعاسرها

وانفرجت بالنعيم وانتجعت ... فيها بلذاتها حواضرها

فالقوم منها في روضة أنف ... أشرق غب القطار زاهرها

ثم أتى على ذكر الحكمة التي تكثر في الرثاء،ولاسيما رثاء الممالك بأن الدنيا لا تبقى عامرة:

من غرّهُ العيش في بلهنية ... لو أن دنيا يدوم عامرها[1]

---

(١) الديوان:٢٤

ثم بدأ بوصف بغداد بأنها دار ملوك ترسخت قواعدها، وعرفت بالأمان في عهدهم ؛ لأنهم أهل للمعالي والفخر، وبنوها وهم يسيرون على إرث أكابرهم الذي شدوا عراها:

دار ملوك رست قواعدها فيها وقرت منابرها[٢]
أهل العلا والندى وأندية الـ فخر إذا عددت مفاخرها
أفراخ نعمى في إرث مملكة شد عراها لها أكابرها

ثم يأتي على ذكر الفتنة التي أعاد أسبابها إلى قدح الأصاغر في ملك الأكابر ؛ مما أدى إلى هذه الفتنة الكبرى، ومن بعدها تفرقت شيعا ن وانقطعت بذلك أواصر الوحدة فيها:

فلم يزل والزمان ذو غير يقدح في ملكها أصاغرها[٣]
حتى تساقت كأسا مثملة من فتنة لا يقال عاثرها
وافترقت بعد ألفة شيعا مقطوعة بينها أواصرها

ومن أسباب الفتنة التي جاءت القصيدة على ذكرها أن المُلك أورد أهلها الغواية، ولم يأخذ الحكام بمبدأ التقوى، واعتمدوا سفك دماء شيعتهم، فقد غرهم فضول الدنيا، فباعوا ما جمعه آباؤهم، فلم تربح تجارتهم:

يا هل رأيت الأملاك ما صنعت إذ لم يرعها بالنصح زاجرها[٤]
أورد أملاكنا نفوسهم هوة غي أعيت مصادرها
ما ضرها لو وفت بموثقها واستحكمت في التقى بصائرها
ولم تسافك دماء شيعتها وتتبعت فتية تكابرها

---

(١) المصدر نفسه:٢٤
(٢) المصدر نفسه: ٢٤-٢٥
(٣) الديوان: ٢٥
(٤) المصدر نفسه: ٢٥

وأقنعتـــها الدنيا التي جمعت لها ورعب النفـــوس ضائرها
ما زال حوض الأملاك يحفره مسجـــورها بالهوى وساجرها
تبغي فضـــول الدنيا مكاثـــرة حتى أبيحـــءت كرها ذخائـــرها
تبيـــع ما جمع الأبـــوة للـــــ أبناء لا أربـــــــحت متاجرها

ثـــم يعـــرج علـــى وصـــف مدينة بغداد وضواحيها قبل الفتنة من جنان زاهـــرة يـــروق منظـــرها لكـــل بـــصير، وقصور مشرعة مثل الدمى، وقرى مخضرة بالكروم والنخل والريحان:

يا هل رأيت الجنان زاهـــــرة يروق عين البصير زاهرها[1]
وهل رأيت القصور شارعـــــــة تكن مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التي غرس الـــ أملاك مخضرة دساكرها

ثـــم يأتـــي علـــى ذكـــرها بعد الفتنة، فكل هذا الجمال تحوّل إلى أناسي أدمـــيت محاجـــرها حـــزنا وكمـــدا علـــى ما آلت إليه، فبعد الروعة والجمال باتـــت قفـــرا خاويـــة ينكـــرها زائـــروها ؛ لأنها باتت رسوما دارسة، والبؤس والشقاء يشيعان في جوانبها بعد أن هجرها السرور:

فإنها أصبحت من خلايا من الـــ إنسان قد أدميت محاجرها[2]
قفرا خلاء تعـــــوي الكلاب بها ينكر منها الرسوم زائرها
وأصبح البؤس ما يفارقـــهـــــا إلفا لها والسرور هاجرها

ثـــم يذكـــر تلـــك الأمـــاكن بأســـمائها: زندرود، والياسرية، والشطين، والرحـــى، والخيـــزرانة العلـــيا، وقـــصر عـــبدويه حيث باتت توحي مناظرها بالعبرة على ما آلت إليه:

بـــ (زندرود) و(الياسرية) و(الشط ـــطين) حيث انتهت معابرها[3]

---

(١) المصدر نفسه: ٢٩
(٢) المصدر نفسه: ٢٩
(٣) المصدر نفسه: ٢٩-٣٠

وبـ (الرحى) و(الخيزرانة الـــ ـعليا) التي اشرفت قناطرها
و(قصر عبدويـــه) عبرة وهدى لكل نفس زكـت سرائـرها

ثـم يتـساءل بحـرقة عـن حـراس القـصور، وعـن جابـريها ومجـبوريها، وخـصيانها وحاشـيتها، وسـكانها وعامـريها، وعن الجرادية الأشـاوس، والأحـباش، والجـند... ويذكر أمجاد جيوشها، والكتابة والكتّاب، ويأتـي علـى ذكـر النعـيم الـذي كانـت تعمر به تلك الأماكن، وعن اللهو والغـناء والـرقص، وكلهـا مـن مستلزمات الحياة المترفة التي كانت تعيشها بغداد في ذلك العصر، وكانت مرتعا خصبا لها:

فأين حراسها وحارسهـــــا وأين مجبورها وجابرهـــا[1]
وأين خصيانها وحشوتهـــــا وأين سكانها وعامرهـــــا
أين الجرادية الصقالب والـــــ أحبش تعدو هدلا مشافرهـــا
ينصـــدع الجند عن مواكبهـــا تعـــدو بها سربا ضوامرها
طيرا أبابيل أرســـلت عـبثـــا يقدم سودانـــــها أحامرها
أين الظباء الأبكار في روضة الـ ـملك تهادى بها غرائرهـــا
أين غضـــاراتها ولذتهـــا وأين محبورها وحابرهـــا
بالمسك والعنبر اليماني والـــــ ـيلنجوج مشبوبة مجامرهـا
يرفلن في الخز والمجاسد والـــ ـموشي محطومة مزامرهـا
فأين رقاصـــها وزامرهـــا يجبن حيث انتهت حناجرهـا
تكاد أسمـــاعهم تسـك إذا عارض عيدانها مزاهرهـــا

والواضـح علـى ذكـره لـتلك النعم والحاضرة وأوجه الترف أنه كان يطـريها بـسؤال المتحـسر الـذي ضاعت كلها من بين يديه ومن أمام ناظره لـيدخل بعـد ذلـك ببـيان مـا آلـت إليه بأجوبة تلك التساؤلات بأنها أمست

---

(١) الديوان: ٣٠

(كجوف الحمار الخالي)، وحل الدمار في ساحاتها، فكأن عادا مستهم بضر:

أمست كجوف الحمار خالية يسعرها بالجحيم ساعرها[1]

كأنما أصبحت بساحتهم (عاد) ومستهم صراصرها

ثم يعود إلى بيان ما جرى لبغداد بأسلوب الحكمة التي تذهب إلى أن النفس لا تعلم ما يخبئ لها الدهر، فهي تصبح على شيء وتمسي على ضده إذا استقرت بها الشرور:

لا تعلم النفس ما يبايتها من حادث الدهر أو يباكرها[2]

تضحي وتمسي درية غرضا حيث استقرت بها شراشرها

وكانت هذه الحكمة مدخلا للحديث عن بؤس بغداد التي كانت مملكة عامرة دارت عليها الدوائر، وعاقبها الله بارتكاب أهلها للكبائر بعد أن أمهلها:

يابؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها[3]

أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها

ثم بدأ بتعداد ما حاق بها من عقاب بالخسف والقذف والحريق والحرب:

بالخسف والقذف والحريق وبالـ حرب التي أصبحت تساورها[4]

ويعيد هذه المآسي إلى العقاب الإلهي لأهلها بسبب ما جرى فيها من معاصي يتساءل هل سيغفرها الله أم لا:

---

(١) الديوان: ٣١

(٢) الديوان: ٣١

(٣) الديوان: ٣١

(٤) الديوان: ٣١

كم قد رأينا من المعاصي ببغـدا د، فهل ذو الجلال غافـرها[1]

ويسير على هذا المنوال في وصف الكوارث التي حلت بها بجرائر أهلها فيصف حال أهلها بتفصيل دقيق لا يستثني شاردة أو واردة لينقل لنا الأحداث التي جرت وكأنها ماثلة أمامنا إلى البيت السابع بعد المائة الذي يتساءل فيه هل ستعود تلك الأرض كما كانت:

هل ترجعن أرضنا كمـا غنيت وقـد تناهت بنا مصائرها[2]

وأظن أنه أراد أن ينتقل إلى الفكرة القادمة في مدح المأمون، فجعل من التساؤل جسرا يمر فيه من الوصف إلى المديح بما يسمى عند العرب ببراعة التخلص، وذكر في مدحه للمأمون مآثره، فهو عنده خليفة الله الذي سيجبر الكسر:

بأن خير الولاة قد علم النـ اس إذا عددت مآثـرها[3]

خليفة الله في بريته (الـ ـمأمون) منتاشها وجابرها

وبدأ بتعداد مآثره فقد سمت إليه آمال أمته التي رأت العدل والتقى من مخايله، فهو المعروف بسيرته الحميدة

سمت إليه آمال أمتـه منقادة بـرها وفاجرها[4]

شاموا حيا العدل من مخايله وأصحرت بالتقى بصائرهـا

واستجمعت طاعة برفقك (للمأ مون) نجديهـا وغائرها

وأنت سمـع في العالمين له ومقلة ما يكـل ناظرهـا

ويتضح ذكاء الشاعر في البدء بالمدح الذي سينتقل بعده إلى النصيحة، وهذه عادة درج عليها الشعراء فيما يسمى عند البلاغيين

---

(١) الديوان: ٣١

(٢) الديوان: ٣٥

(٣) الديوان: ٣٦

(٤) الديوان: ٣٦

ببـــراعة الطلـــب؛ حـــيث يقـــرن المدح بالطلب، وطلبه هنا ليس طلبا شخصيا، بـــل هـــي نـــصائح تـــضع الأمور في نصابها وتعيد لبغداد أمجادها، أولها أن يشكر خالقه على ما آلت إليه من نعم:

فاشكر لذي العرش فضل نعمته أوجب فضل المزيد شاكرها(١)

واتباع المشورة في استصدار الأوامر:

لا تردن غمـــــــرة بنفسك لا يصدر عنها بالرأي صادرها(٢)

ثـــم نـــصحه بالتأنـــي فـــي الأمـــور، وعدم الخوض فيها وهي زاخرة بالمنغصات؛ فالطريق متشعبة، وتحتاج إلى الأناة:

عليك ضحضاحها، فلا تلج الغمـــ ـــرة ملتجة زواخـــرها(٣)

والقصد أن الطريق ذو شـــعب أشأمها وعثها وجائرهـــا

وبين له أنه الخليفة في أمة قد فارقت هدي أوائلها:

أصبحت في أمة أوائلهـــــــا قد فارقت هديها أواخرها(٤)

ثـــم يعـــود إلـــى نـــصحه له بتأديب الرجال الذين عرفت سيرتهم ممن خالفوا الكتاب:

أدّب رجالا رأيت سيرتهم خالف حكم الكتاب سائرها(٥)

وأن يمـــد إلـــى رعيـــته كـــف رحمـــته بعد أن أمكنه الله بالعدل بينهم بما يملك من سلطة:

وامدد إلى الناس كف مرحمة تسد منهم بها مفاقرها(٦)

---

(١) الديوان:٣٦

(٢) الديوان:٣٦

(٣) الديوان:٣٦

(٤) الديوان:٣٦

(٥) الديوان:٣٧

(٦) الديوان:٣٧

أمكنك العدل إذ هممـــت به ووافقـــت مدّه مقادرها

ويذكـره بـأن لديـه الكثيـر مـن النـصائح التـي أجبتها الطاعة لله والقربى للخليفة، ،اظنه يشير إلى القربى من ناحية أم الخليفة الفارسية:

كم عندنا من نصيحة لك في الـ ـله وقربى عزت زوافرها[1]

وأنهـى قـصيدته بوصـفها بالغـراء،وأنه لم يقلها طمعا ولا بطرا، بل أرادهـا لله لـتكون نـصيحة مـشفوعة بالخـشية، وأنها نظمت لتحكي الأمور كما جرت.

دونك غراء كالوذيلة[2] لا تفقد في بلدة سوائـــرها[3]
لا طمـــعا قلتها ولا بطرا لكل نفس هوى يؤامـــرها
سيرها الله بالنصيحة والـ ـخشية فاستدمجت مرائرها
جاءتك تحكي لك الأمور كما ينشر برّ التجار ناشرهـــا

ويـبدو لـنا بعـد قـراءتنا للقـصيدة أنـه نظمهـا عـن خشية على اسـتمرارا النكـبة التـي حلـت ببغداد، والصراع المرير والطويل بين الأمين والمأمـون، ومـا آلـت إلـيه حـال المسلمين من الانهيار والتفكك بسبب هذا الـصراع وغيـره ممـا جـرى قبله، وما انتهت إليه مدينتهم العامرة ودولتهم وحـضاراتهم مـن دمـار شـامل وسقوط مريع، ويبدو لنا الشاعر وقد تفاعل مـع تلـك الأحـداث تفـاعلا أبـدع معـه هذه الغراء كما وصفها بنفسه. وقد أجـاد فـيها وأبـدع، وأتـى فـيه بالـشعر الرائع والحكمة المؤثرة والوصف الـبديع، وانطلـق فـيها مـن عاطفـة صادقة حزينة وشعور بالمرارة والأسى والحزن على ضياع الديار وتشتت المسلمين وتناحرهم.

---

(١) الديوان:٣٧

(٢) الوذيلة: المرآة، وقيل القطعة من الفضة

(٣) الديوان:٣٧

ووجدنا في ثنايا القصيدة دراسة واقعية لأسباب الفتنة متمثلة في الميل إلى حياة الترف واللهو وفساد الحكام وغيرها من الأمور التي جاء ذكرها في تحليل القصيدة.

ويبدو رثاء هذه المدينة تجربة إنسانية قل نظيرها في الأدب العربي لما اتصفت به من حدة وحماسة، وجرأة في نقد المجتمع، ودعوة لاسترجاع ما ذهب.

ورأيناه قد برع في وصف ما حلّ ببغداد في نبرة آسية، ولوعة صادقة، صوّر خلالها الفتنة تصويراً دقيقاً مسهباً، حتى لتبدو أمام العين- حين قراءتها- صور التخريب والدّمار والقتل والذّعر الذي يتغشّى الناس في الطرقات. وقد ساعد على ذلك ما عرف عن الخريمي من شاعرية وثقافة وميل إلى الحكمة يصبغ بها شعره وينسج منها فنه.

٣- المديح:

" المديح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء على الجميل الاختياري قصدا".(١)

ومادة هذه الكلمة تدور في المعاجم حول الاستلاء والشبع" وامتدحت الأرض وتمدحت اتسعت، وامدّح بطنه لغة في اندحّ إذا اتسع،وتمدحت خواصر الماشية إذا اتسعت شبعا"(٢) ، ويرجح الدكتور نعمان طه(٣)"أن المدح ربما كان من المتح الذي يدور حول استقاء الماء من البئر، فمتح البئر استقى منها "، وفي تخريج الدكتور طه دلالة مهمة على أن الشاعر يأخذ من ممدوحه كما يستقي الإنسان من البئر.

---

(١) التعريفات – الجرجاني – المطبعة الخيرية بجمالية مصر – ١٣٠٦: ٢٠٧

(٢) اللسان – مادة مدح

(٣) جرير حياته وشعره – نعمان أمين طه – رسالة ماجستيرجامعة القاهرة – ١٩٥٢ ٢٢٠-٢٢١

"المديح فن الثناء والإكبار والاحترام، و قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب حياتنا التاريخية...فأوضح بذلك الخفايا وكشف عن بعض الزوايا،وأضاف إلى التاريخ – صادقا أو كاذبا- ما لم يذكره التاريخ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه، وزاد في شهر أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام، وأغفل زملاء لهم كانوا أحق بالذكر وأجدر بالشهرة، ولكنها الحظوظ يوزعها الشعراء، فينال الناء بعضا ويحرم بعضا".(١)

أما مدائح شاعرنا فهي في قسمين: قسم ذكر فيه اسم الممدوح، وكان في أربع قصائد واحدة في محمد بن منصور بن زياد، والثانية في يحيى بن خالد بعد أن أصلح بين النزارية واليمانية، والثالثة في أبي دلف العجلي، والرابعة في مدح أبي عثمان الخريمي في سياق عتابه للوليد بن إيان، والقسم الثاني مدائح في رجال مجهولين لم تذكر أسماؤهم في الديوان، ولم تظهر في السياق الشعري، وسأحاول تبين معالم القصيدة المدحية مما بين يدي منها، وأول تلك القصائد في مدح محمد بن منصور بن زياد، وقد ذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب أنه من كتّاب البرامكة، وأنه كان سريا سخيا، وأن شاعرنا أكثر من مدحه في قصائد عدة، وأكثر أيضا من رثاء أبيه(٢)، وفي هذا إشارة إلى ضياع جل شعر الخريمي، فهذا الذي أكثر الخريمي من مدحه لم أجد في مدحه غير قصيدة واحدة في ديوان الشاعر في سبعة أبيات جمعت بين صفات

---

(١) المديح – سامي الدهان- دار المعارف – ط ٥: ص ٥

(٢) الوزراء والكتاب – الجهشياري – ت: مصطفى الشقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة – ط١ – ١٩٣٨: ٢٦٦-٢٦٨

الممدوح التي تستدعي نسبة الفضل إلى صاحبه، وبين هذه القصيدة الغراء الجديرة بالشكر، فالندى عنده يناجيه الندى:

لا يناجي في الندى إلا الندى وإذا همّ به لا يستثير[١]

ثم بدأ في ذكر صنائع المعروف عند ممدوحه التي يزيدها عظما في نفس الشاعر أنها عند ممدوحه مستورة حقيرة، رغم أنها عند غيره مشهورة خطيرة القدر:

زاد معروفك عندي عظما أنه عندك مستور حقير[٢]

تتناساه كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور خطير

وقد أولاه الكثير من النعم التي جعلت ثناءه قاصرا أمام عظمها:

كم وكم أوليتني من نعمة تدع المثني بها وهو حسير[٣]

ثم جاء على ذكر الثناء، فوصف قصيدته بالغراء التي تسري في الدجى:

هاكها غراء تسري في الدجى كل بيت عائر منها يسير[٤]

وهي حلة حبّرها محب وامق يرد الجميل، وينيرها بوده:

فجدير أنا بالشكر كما أنت بالإحسان والفضل جدير[٥]

ثم جمع في البيت الأخير بين الثناء والإنعام، فثناؤه يستحق الشكر، وإنعام ممدوحه يستحق الإحسان والفضل:

فجدير أنا بالشكر كما أنت بالإحسان والفضل جدير[٦]

---

(١) الديوان:٢٥

(٢) الديوان:٢٥

(٣) الديوان:٢٥

(٤) الديوان:٢٥

(٥) الديوان:٢٥

(٦) الديوان:٢٥

وقال من قصيدة يمدح بها أبا دلف العجلي ثلاثة أبيات الواضح عليها أنها ليست متتالية، وقد جمعها محققا الديوان من مصدرين مختلفين[1] يقول في الأول:

أبا دلف دلفت حاجتي إليك وخلتها بالدلوف[2]

ولا إخال هذا البيت وحده يقدم المعنى الذي أراده الخريمي، فقد جاء بالحاجة، وما كان يظن أنها تصل، ولابد من معرفة الأبيات التي تلي هذا البيت لاكتمال المعنى، ومعرفة الصفات المدحية التي أجزلها على ممدوحه، و ينطبق ذلك على البيتين الأخيرين الذين لا يكتمل معناهما إلا بمعرفة ما سبقهما وما وليهما.

وفي الديوان ثلاثة أبيات جاء بها المحققان في سياق المدح بقولهما: قال يمدح، وذكرا في الحاشية أن هذه الأبيات الثلاثة من وزن الاثنتي عشر بيتا السابقة وقافيتها نفسها، ولكنها أولى أن تكون في المديح ولاسيما الثالث، على حين كانت الأبيات السابقة في الفخر، وهذا ما حال دون الجرأة على عدّ المجموعتين من قصيدة واحدة، ويبقى هذا الخوف حتى لو عد الفخر مقدمة للمديح.[3]

وأظن أن الأبيات الثلاثة في الفخر وليست في المديح، وهي من القصيدة التي سبقتهما في الديوان، ولا ضير في أن تكون بأسلوب المخاطب، وهذه عادة من عادات العرب يعبرون عن أنفسهم أحيانا بأسلوب الخطاب:

---

(١) البيان والتبيين ١/١١١-١١٢، وعيون الأخبار: ٣/١٧

(٢) الديوان:٤٧

(٣) الديوان: ٥١

فلو فلم يكن إلا بنفسك فخرهـــا لكان لها يوم الفخار بك الفضل[1]

جريت على مهل فأتعبت من جرى فلا تعب يدني عليك ولا مهل

ويبذل دنيـــــاه ويمنع دينـــه فلا مثل ذا بذل ولا مثل ذا بخل

والمتتبع للقصيدة السابقة يرى الانسجام في الفكرة بينها وبين الأبيات السابقة، وسأقوم بدراستها في موقعها من البحث.

وجمع شاعرنا بين عتاب الوليد بن إبان، والثناء على عثمان الخريمي، ومدح كلا الرجلين، وإن جاء مدح الأول في سياق العتاب، وبين العتاب والمدح وشائج لا ينكرها منصف، ولا يعاتب المرء إلا إذا كان أثيرا عند مُعاتبه، ويبدو أن الوليد تعجّب من صبر الشاعر على الأذى، وحصل بينهما ما يوجب القطيعة؛ مما أدى بالشاعر إلى عتابه، ووصف نفسه بالحلم والإغضاء:

أتعجب مني أن صبرت على الأذى وكنت امرأ ذا أربة متجمـــــلا[2]

فإني، بحمد الله، لا رأي عاجـــز رأيت، ولا أخطأت للحق مفصـــلا

ولكن تدبرت الأمور فلم أجـــد سوى الحلم والإغضاء خيرا وأفضلا

ثم ذكر سبب ذلك بما كان بينهما من عهد لا تنقضّ أركانه ولا تزول، وأن للوليد أياما غرّا أولى بها الخريمي بالإنعام، ويبدأ هذه الفكرة بالقسم بأنه لولا ما تقدم من سالف الود بينهما والعهود، وإنعامه عليه لهجره إكراما لنفسه:

وأقسم لولا سالف الود بيننـــا وعهد أبت أركانـــه أن تزيـــلا[3]

وأيامـــك الغر اللواتي تقدمت وأوليتنـــيها منعما متطـــولا

---

(١) الديوان:٥١

(٢) الديوان:٥٢

(٣) الديوان:٥٢

رحلت قلوص الهجر قم اقتعدتها إلى البعد ما ألفيت في الأرض معملا
وأكرمت نفسي، والكرامة حظها ولم ترني، لولا الهوى، متذللا

ففي سياق العتاب ذكر ايادي المعاتَب البيض عليه فذكر الود والعهد، والإنعام، ثم انتقل من العتاب إلى مدح أبي عثمان الخريمي، فهو الأخ الذي يعين على جلاء الهموم:

وعارضت أطراف الصبا أبتغي أخا يعين إذا ما الهم بالمرء أعضل[1]

وهو لا مثيل له، وهو الحر الذي يتسربل بالمجد:

أخا كـ(أبي عمر) وأتى بمثله اذا الحر بالمجد ارتدى وتسربلا[2]
جزى الله عثمان الخريمي خير ما جزى صاحبا جزل المواهب مفضلا

ومن الصفات التي ذكرها لممدوحه: الصفاء بالود، وعدم الخيانة، وأنه لا يمنع ماله، وأن لسانه دائم الذكر له، ويركب من أجله المخاطر:

أخا كان إن أقبلت بالود زادني صفاء وإن أدبرت حنّ وأقبلا
أخا لم يخني في الحياة ولم أبت يخوفني الأعداء منه التنقلا
إذا حاولوه بالسعاية حاولوا به هضبة تأبى بأن تتخلخلا
يحكّمني في ماله ولسانه ويركب دوني الزاعبي المؤللا

وكان لابد مع هذه الصفات الجليلة أن يقابلها الشاعر بمثلها أو بأقل منها، فهو قد مضى وصنيعه لم يكدر، وقابل الشاعر ذلك بعدم البعد:

وبات حميدا لم يكدر صنيعه ولم أقلِه طول الحياة وما قلا[3]

---

(١) الديوان:٥٣
(٢) الديوان:٥٣
(٣) الديوان:٥٤

وفي القصيدة كما يظهر لي جمع بين العتاب والمدح، وتعريض بالمعاتب عن طريق الثناء على آخر، وكأنني به يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد مدح لرجل، وذكر صفات حميدة له لم تتوفر في المعاتب، ومدح رجلا اسمه زيد لم نجد له ترجمة في الديوان، ولا شي عنه غير اسمه الأول، وقد اشتق صفاته من اسمه ؛ فهو زيد الندى، وزيد الفخار، وزيد الكرم[١]:

رأيتك يا زيد زيد الندى وزيد الفخار وزيد الكرم

تزيد على نائبات الخطو ب بذلا وفي سابغات النعم

وشبهه بالخمر والذهب، وأخذ من الذهب الجود، ومن الخمر القدم، وفيه إشارة إلى الخمر المعتقة[٢]:

كذا الخمر والذهب المعدني يجود هذا وذاك القدم

ومدح يحيى بن خالد[٣] بعد أن أصلح بين النزارية واليمانية[٤]:

---

(١) الديوان: ٥٦

(٢) الديوان: ٥٦

(٣) يحيى بن خالد بن برمك الوزير الكبير أبو علي الفارسي من رجال الدهر حزما ورأيا وسياسة وعقلا وحذقا بالتصرف. ضمه المهدي إلى ابنه الرشيد ليربيه ويثقفه ويعرفه الأمور، فلما استخلف رفع قدره ونوه باسمه، وكان يخاطبه: يا أبي. ورد إليه مقاليد الوزارة، وصير أولاده ملوكا، وبالغ في تعظيمهم إلى الغاية مدة إلى أن قتل ولده جعفر بن يحيى فسجنه وذهبت دولة البرامكة:سير أعلا م النبلاء " ؟؟؟؟

(٤) ذكر الطبري في حوادث سنة ١٧٦، أن العصبية هاجت بالشام بين النزارية واليمانية، وقد ولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام، فأقام بها موسى حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها، فانتهى الخبر إلى الرشيد فرد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد، فعفا هذا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد: تاريخ الطبري – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – تاريخ الأمم والملوك – ت: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار سويدان – بيروت : ٨ / ٢٥١.

والقصيدة جزلة الألفاظ تتناسب وخطاب الوزراء، فدون لقائه ممدوحه الصعاب " كانت صلة الشعراء بالوجهاء والأشراف والأمراء والوزراء والقواد أشد من صلتهم بالملوك والخلفاء، ولم يكن من الميسور دائما أن يحظوا جميعا بلقاء الملوك والدخول على الخلفاء؛ لذلك تعلقوا بأسباب من دونهم، وسيلة إلى الجاه حينا وإلى المال أحيانا، ونظر الشعراء إلى هؤلاء غالبا نظرة الغريق إلى المنقذ".(١)

من مبلغ (يحيى) ودون لقائه زبرات(٢) كل خنابس(٣) همهام(٤)

ثم وصفه براعي السلطان الذي لا يفرط بما تقتضيه مكانته التي تحتاج إلى اللين، وحراسة الملك، وما سوى ذلك:

يا راعي السلطان غير مفرط في لين مختبط وطيب شمام(٥)

تعذى مسارحه ويصفى شربه ويبيت بالبوات والأعلام

في كل ثغر حارس من قبله وشعاع طرف لا يفتر سام(٦)

وجاء في مدحه لبني خريم ذكره محاسنهم، فالكرم في عمائمهم، وفي سفورهم، ومن كان جارهم فهو جار أكرم الثقلين:

إذا لبسوا عمائمهم ثنوها على كرم، وإن سفروا أناروا(٧)

يبيع ويشتري لهم سواهم ولكن بالسيوف هم تجار

إذا ما كنت جار بني خريم فأنت لأكرم الثقلين جار

---

(١) الوزراء والكتاب: ص ٤٤

(٢) جمع زبرة: الزجر والنهر: اللسان: مادة زبر

(٣) الخنابس الجريء الشديد. اللسان: مادة خنبس.

(٤) همهام: من الهمهمة: يردد الزئير في الصدر.اللسان: مادة همهم.

(٥) المختبط: بلا وسيلة ولا قرابة ولا معرفة، والشمام: الدنو والاقتراب

(٦) الديوان: ٥٨

(٧) الديوان: ٦٩-٧٠

والواضح في مدائح الخريمي السابقة أنه لم يخرج عما تواضع عليه أهل عصره في مدائحهم من ذكر الفضائل الأخلاقية كالكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف إلى ما هنالك من قيم أخلاقية أصيلة، ويبدو تركيزه على الكرم والإنعام ؛ لأنه كان ممن يقبلون النعم من مانحيها، ولكنه إلى جانب ذلك كان يظهر عفة نفسه، وأنه بشعره يقابل الإحسان بالشكر على عادة الكرام.

٤- الفخر والشعوبية:

"الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها،والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها، والإنسان- كما لا يخفى -سجين ذاته منذ الولادة،يديم النظر في مرآتها مستجليا محاسنها، صابغا قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح الناس أجمعين، مقارنا فيما بينها وبين غيرها، وهذا الإيثار للنفس إذا تجسم في عبارات شعرية ؛ كان الفخر وكان الحماسة".(١)

و" الفخر هو تعداد الصفات وتحسين السيئات، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب،وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم،يعبر عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة".(٢)

وأما العصر العباسي فقد شهد تطورا في الفخر عن العصور التي سبقته، لاسباب كثيرة منها ما كان بسبب التطور الطبيعي في الحياة، ومنها ما كان بسبب اختلاطهم بالشعوب الأخرى، ومنهم الفرس فقد " كان العصر العباسي، وكان الانقلاب العظيم في السياسة والاجتماع والثقافة، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية، وبين

---

(١) الفخر والحماسة – محمد سامي الدهان – دار المعارف – الطبعة الخامسة : ٥

(٢) المرجع نفسه: ٥

العقل العربي والعقل اليوناني والفارس والهندي، وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم، ونشأت النزعة العنصرية في صفوف الشعوبية، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب، أما موضوعات الفخر الذاتي في العصر العباسي، فهي مما يماشي حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم، وكانوا في بدء الأمر في طور انتقال من حال إلى حال، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممتزجة،من ثقافة وحضارة عربيتين إلى ثقافة وحضارة هما مجموع ثقافات وحضارات، من عادات وتقاليد عربية في الأخلاق والدين والأدب، إلى عادات وتقاليد هي عصارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانفلات من القيود،والتفلسف والجدل والاعتماد على العقل الذي فاجأته الفلسفات، فحار بينها وحاول أن يهدم ويبني في غير تثبت عميق أحيانا كثيرة،ثم راح أبناء ذلك العصر يهضمون الفلسفة والعلوم،... وإذا الفخر يدور حول العقل والرأي والحكمة،وحول الانفلات والتحرر، والشجاعة الحكيمة والحزم في الأمور، والأصل العريق في الحضارة والرقي، والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن، والأصباغ المتماوجة في أجواء الجمال، وحول الوقار والتعالي في سلم المجد المعنوي"[1] ، ومن قصائد الخريمي في الفخر قصيدة يفخر بها بنسبه وبأهله ويفاضل بينهم وبين العرب، وتبدو في القصيدة الفخرية شعوبية مفرطة في قوله:

ألا هل أتى قومي مكري ومشهدي (بقا ليقلا) [2] والمقربات تثوب[3]

تداعت (معد) شيبها وشبابها و(قحطان) منها حالب وحليب

---

(١) الفخر والحماسة – محمد سامي الدهان: ٢٤ – ٣٥

(٢) قاليقلا: من مدن أرمينيا

(٣) الديوان:١٤

لينتهبوا مالي ودون انتهابـــــه حسام رقيـــق الشفرتين خشيب

وفـيها يذكـر معـدا وقحطـان وهي قبائل عربية، ويدعي أنها تداعت علـيه بكـل مـن فـيها لينهـبوا ماله، ويبدي أنه ليس باللقمة السائغة، فدونهم سيف حاد يمنعهم عنه.

ويـنادي قـومه فـي (مـرو) و(بلـخ)، ويـصفهم بالأحساب الكريمة على عادة الشعوبيين:

وناديت من (مرو) و(بلخ) فوارسا لهم حسب في الأكرمين حسيب[1]

ولكـن نـداءه لـم يجـب بـسبب بعـد المسافة بينه وبينهم، مما يثير حسرته، ولو كانوا قريبين لما توانوا عن نصرته:

فيا حسرتاه لا دار قومي قريبـــة فيكثر منهم ناصري فيطيب[2]

ويـتعدى ذلـك إلـى المـبالغة فـي انتـسابه، فأبوه ساسان كسرى بن هرمز، وخاقان نسيبه:

وإن أبي (ساسان كسرى بن هرمز) و(خاقان) لي لو تعلمين نسيب[3]

ويـذهب مذهـبا آخـر يـدل علـى عدم تمكن الدين منه، فيفخر بملك أجداده في أثناء شركهم، وقبل أن يسلموا، والناس حين ذاك منقادون لهم:

ملكنا رقاب الناس في الشرك كلهم لنا تابع طوع القياد جنيب[4]

ويـبدأ بـتهديد مـن تـوعدهم ممـن اتهمهـم في بداية القصيدة بأنهم يـريدون نهـب مالـه بـأن أولئك الذين فخر بهم سيسومنهم خسفا، وسيقضون عليهم، فلا يخطئون منهم أحدا:

---

(١) الديوان:١٥

(٢) الديوان:١٥

(٣) الديوان:١٥

(٤) الديوان:١٥

نسومكم خسفا ونقضي عليكم بما شاء منا مخطئ ومصيب[1]

ونراه يناقض نفسه في نهاية القصيدة حيث يذكر الإسلام الذي انشرحت له صدور قومه، وكيف أنهم تبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقادوا لرسالته:

فلما أتى الإسلام وانشرحت له صدور به نحو الأنام تنيب[2]

تبعنا رسول الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تصوب

"والذات في الفخر ذات و تمددات للذات،من خلال خلقية وخلقية،ومن أصل ونسب،وحزب ومذهب، وأعمال وأقوال،ومواقف كرامات وبطولات،وما إلى ذلك مما لا نهاية له،والفخر من ثم أنواع: فخر ذاتي، وفخر حزبي،وفخر سياسي، وفخر ديني، وفخر حربي.أما الفخر الذاتي فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد،وما دار حول القبيلة والآباء والأجداد"[3] واتسمت الشعوبية الحقة في العصر العباسي بازدراء العرب والحط من أقدارهم وقيمهم وإنزال مراتبهم؛ حيث قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وأنقصوا من حقهم وصغروا من شأنهم، وذلك بسبب حقدهم عليهم بسبب سلطان العرب وحكمهم لهؤلاء الشعوبيين، وأنهم أحق بالملك منهم.ويمكنني أن أضع علامة استفهام على ما جاء عند الدكتور شوقي ضيف قوله:"ومن الشعوبيين أبو يعقوب الخريمي، ولكن شعوبيته ليست بسبب حقده على العرب أو

---

(١) الديوان:١٥

(٢) الديوان:١٥

(٣) الفخر والحماسة:٥

الإسلام، ولكن لطلب المساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب، ولذلك نحاه كثيرون من الكتاب عن الشعوبية ".[1]

وقصيدته التي قمت بقراءتها توحي بغير ما جاء في كلام الدكتور ضيف، فلم ترد كلمة واحدة تدل على المساواة فيها، بل ورد فيها ما يدل على الحقد الدفين، وأن المجوسية ما زالت حية قوية في نفس الخريمي، ومعلوم أن النزعة الشعوبية نشأت على يد الفرس بسبب وصولهم إلى السلطة، وإلى مكانة عالية في الحكم وتقاليده، وبدت جلية في هذه القصيدة بأنها نزعة تقوم على مفاخرته بنسبه وعرقه ورفعته، وبيتاه الأخيران قد يدلان من بعيد على مناداته بالمساواة انطلاقا من الدين الحنيف، ولكن المساواة لا تقتضي الحط من أقدار المساوين لهم في الدين، وبدايته بالفخر بقومه وبسطوتهم وبنسبهم تعني أنه متشبع بهذا الفكر الذي كان سائدا آنذاك، ولو ذهبنا مذهبهغ في أن شعوبيته للمساواة فأمرها يجب أن يكون هو السائد في القصيدة، أو أن تكون بداياتها بغير ما بدأ به شاعرنا فخريته، ويدل بيت آخر على شعوبيته يفخر بانتسابه إلى قومه، وأنه من سراة الصغد، والصغد اسم للوادي والنهر الذي تشرب منه سمرقند وبخارى، وأنه يفخر بأن عرق الأعاجم أكسبه طيب الخبر:

إني امرؤ من سراة الصغد ألبسني عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر[2]

وله قصيدة أخرى يفخر بها يخاطب فيها فتاة عربية اسمها (جمُل) ويبدو أنها تعيره بأصله سفاهة كما يذكر، ويتهمها بالجهل، ويفخر أمامها بأصله من (الصغد) الذي يراه لا بأس به، وليس موضعا لطعن:

---

(١) العصر العباسي الأول – شوقي ضيف – دار المعارف – ١٩٦٣ م:

(٢) الديوان:٣٨

أب (الصغد) بأس إذ تعيرني (جُمل) سفاها، ومن أخلاق جارتي الجهل[1]

هم فاعلموا أصلي الذي منه منبتي لى كـــل فرع في التراب له أصل

ثـم يـتجه لمخاطبـتها بأنهـا إن كانـت تفخـر وتـتجمل بأصـولها العـربية، ففـوق أي أصـل ديـن وعقـل أولى بأن نتجمل بها، فهو يرى أن الـناس سواسـية، ولـيس لأحد على الآخر فضل أو علو شأن، فليس ذنبه أنه لم يكن من أبناء (يحابر)، أو (جرم) أو (عكل)[2]:

فإن تفخري يا (جمـــل) أو تتجملي فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل[3]

أرى الناس شرعا في الحياة ولا يرى لقبر على قبر علاء ولا فضـــل

وما ضرني أن لم تلدني (يحابـــر) ولم تشتمل (جرم) عليّ ولا (عكل)

ويأتـي بحكمـة يـسوقها فـي معرض كلامه لتخدم فكرته، فإذا هي لم تقـم بحمايـة قـديمها مـن المجـد، فإن ذلك المجد القديم لا ينفع، وبذلك يريد القول إن الأصل الماجد إن لم نحمه بأمجاد جديدة فإنه لا ينفع:

إذا أنت لم تحم القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبل[4]

ويـسير علـى هـذا المـنوال فـي التعبيـر عن المساواة بين البشر، فالتفاضل بينهم بأعمالهم:

ودون الندى في كل قلب ثنية لها مصعد وعر ومنحدر سهل[5]

وينهـي القـصيدة بأسـلوب النصيحة التي مفادها أن على الإنسان أن يتـزود مـن الدنـيا مـتاعا لغيـرها، وكأنه يريد أن يقول إنها محطة مرور،

---

(١) الديوان:٤٩

(٢) يحابر وجرم وعكل: قبائل عربية

(٣) الديوان: ٥٠

(٤) الديوان: ٥٠

(٥) الديوان ٥٠

فالنهاية محتومة، والخطاب كما هو واضح من السياق ليس للناس فحسب، بل هو لذاته أيضا:

تزود من الدنيا متاعا لغيرها فقد شمرت حذّاء وانصرم الحبل[1]

وهل أنت إلا هامة اليوم أو غد لكل أناس من طوارقها الثكل

وقد جاء في معرض حديثي عن المديح ذكر ثلاثة أبيات من هذه القصيدة علق عليها محققا الديوان بأنها أولى أن تكون في المديح،وأنها ليست من هذه القصيدة، وقد أثبتت وقتها أنها منها، وأنها في الفخر، ودليلي على ذلك أنها على الوزن نفسه والقافية نفسها، فضلا عن كونها في معاني الفخر، وأنها منسجمة مع ما سبقها في الفكرة من حيث الانسجام العضوي، فقد كانت الأبيات التي سبقتها بأسلوب الخطاب: (تزود، وهل أنت..) وجاءت الأبيات التي نتحدث عنها بالأسلوب نفسه:

فلو لم يكن إلا بنفسك فخرها لكان لها يوم الفخار بك الفضل[2]

فحديثه عن التزود من الدنيا لتكون محطة مرور في الأبيات التي سبقت هذا البيت فيه إشارة إلى يوم يكون فيه الفخر فضلا، ثم يعرج على ذكر محاسنه فقد سار بهذه الدنيا بتمهل وتعقل، ولكن تمهله يتعب جري غيره:

جريت على مهل فأتعبت من جرى فلا تعب يدني إليك ولا مهل[3]

ويبذل دنياه ويمنع دينه فلا مثل ذا بذل ولا مثل ذا بخل

وتقل في هذه القصيدة حمأة الشعوبية، وفيها تعبير واضح عن المساواة بين البشر ولاسيما بين العرب حملة الدين وحكام المسلمين في

---

(١) الديوان: ٥١

(٢) الديوان: ٥١

(٣) الديوان: ٥١

وقتها وبين الفرس الذين آمنوا بالرسالة، وقد ظهر لنا جليا أنه يتقلب بين الشعوبية المفرطة، وبين التعقل في التعبير عنها، والشعوبية هي حركة ظهرت بوادرها في العصر الأموي، إلا أنها ظهرت للعيان في بدايات العصر العباسي. وهي حركة من يرون أن لا فضل للعرب على غيرهم من العجم. وقد تصل إلى حد تفضيل العجم على العرب والانتقاص منهم.

وفي حديثنا عن الشعوبية لابد من معرفة أصلها، وتعريفها الاصطلاحي فقد جاء في القاموس المحيط: «والشعوبي بالضم مُحتقرُ أمر العرب وهم الشعوب»[1]. وهي حركة تبغض العرب وتفضل العجم. وقال الزمخشري في أساس البلاغة: «وهم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم».[2]

إن أقدم الكتب التي حملت إلينا اسم الشعوبية هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وأن أصل كلمة الشعوبية مشتقة من كلمة شعب. وجمعها شعوب وهو الجيل من الناس، وهو أوسع من كلمة القبيلة.

كان الشعوبيون يتمسكون بهذه الآية من القرآن: {يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم}[3].

.وكانوا يسمون حركتهم: "حركة التسوية" (التسوية بين حقوقهم وحقوق العرب)، واتخذت الحركة الشعوبية من الآداب وسيلة لزرع

---

(١) القاموس المحيط مادة: (شعب)

(٢) أساس البلاغة- الزمخشري – ت: عبد الرحيم محمود – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت لبنان ١٩٧٩ م.

(٣) قرآن كريم ؟؟؟

بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها تجاه العرب خصوصا والإسلام عموما، وكان الشعر أحد أهم فروع الآداب المستخدمة في هذا الإطار لكونه الأكثر التصاقا في عقول القراء والمستمعين، والأسهل حفظا في الذاكرة، ومن أعمدة الأدب الشعوبية: الفردوسي والخيام وأبو مسلم الخراساني وأبو بكر الخريمي والرودكي ومحمود الغزنوي، وقام محمود الغزنوي في القرن الثالث الهجري بتكليف الشاعر الشعوبي أبي القاسم الفردوسي بكتابة قصائد شعرية يمجد فيها تاريخ فارس وحضارتها، ويشتم فيها العرب وحضارتهم الإسلامية، ويحط من شأنهم، وقد تعهد له بأن يعطيه وزن ما يكتبه ذهبا، وعلى هذا الأساس وضع الفردوسي ملحمته وأسماها الشاهنامة: (ملك الكتب)، ووضع جلها في شتم العرب وتحقيرهم وتمجيد الفرس وملوكهم. ومما يقوله الفردوسي في "الشاهنامة": «من شرب لبن الإبل وأكل الضب؟ بلغ العرب مبلغا أن يطمحوا في تاج الملك؟ فتبا لك أيها الزمان وسحقا».

المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- **أبـو الطيب المتنبي (دراسة نحوية ولغوية)**، د. محمد السيد عبد الجليل، طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب – القاهرة ٢٠٠٦ م

٣- **الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه**، د. معروف الرصافي، بغداد عام ١٩٥٦م.

٤- **أساس البلاغة، الزمخشري**، ت: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت لبنان ١٩٧٩ م.

٥- **أسـرار الـبلاغة**، عـبد القاهر الجرجاني، ت: هـ. ريتر، ط٢، دار السيرة، بيروت ١٩٧٩ م.

٦- **الأسس الجمالية في النقد العربي**، د. عز الدين إسماعيل، ط ٣، دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٧٤ م.

٧- **أسـس الـنقد الأدبي عند العرب**، د. أحمد أحمد بدوي – ط٣، مكتبة نهضة مصر – القاهرة – ١٩٦٤ م.

٨- **الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية**، أحمد الشايب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٧ – ١٩٩٠م.

٩- **الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي**، تحقيق: عبدالرحمن البدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.

١٠- **أصول النقد الأدبي**، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية – ط ١٠، ١٩٩٤ م.

١١- **الاغتراب سيرة ومصطلح**، محمود رجب، دار المعارف، الإسكندرية،١٩٧٨م.

١٢- **الاغتـراب في القصيدة الجاهلية "دراسة نصية"**، محمود هياجنة، دار الكتاب الثقافي، الأردن، عمان ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٣- **البلاغة العربية**، د. نعيم اليافي – أملية جامعية – كلية اللغات بجامعة حلب ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ م.

١٤- **بـناء الـصورة الفنـية في البيان العربي دراسة موازنة**، د. كامل حسن البصير – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٩٨٧ م.

١٥- **البيان والتبيين**، الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة – نشر لجنة الـتأليف والترجمة والنشر – ١٩٥٠م.

١٦- **تاريخ الأدب العربي**، ألّفه بالألمانية كارل بروكلمان، الإشراف على الترجمة العربية: أ. د: محمود فهمي حجازي، القسم ١ ،٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

١٧- **تـــاريخ الإســـلام الثقافي والسياسي والديني**، حسن إبراهيم حسن، ط٢، دار صادر، بيروت.

١٨- **تاريخ الإسلام**، محمود شاكر، ط١، المكتب الإسلامي، سنة٢٠٠٠م.

١٩- **تـــاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣م.

٢٠- **تـــاريخ الأمـــم والملوك**، الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، لبنان، ط ٢٠٠٣م.

٢١- **تاريخ الدولة العباسية**، الشيخ محمد الخضري، دار الفكر العربي للطباعة والنشر،ط١ ، ٢٠٠٤م.

٢٢- **دلائـــل الإعجاز**،عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر – القاهرة – مكتبة الخانجي – ١٩٨٤م.

٢٣- **الدولـــة الأموية**، الدكتور محمد علي الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٤- **ديوان ابن الرومي**، تحقيق: د. حسين نصار – مطبعة دار الكتب – القاهرة–١٩٧٤م.

٢٥- **ديوان أبي نواس**، أبو نواس – دار صادر – بيروت – لبنان – د. ت.

٢٦- **ديـــوان عنترة بن شداد**، تحقيق: محمد عناني، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠١م.

٢٧- **ديـــوان المتنبي**، شرح الواحدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

٢٨- **ديوان ديك الجن الحمصي**، جمعه وشرحه: عبد المعين الملوحي، ومحي الدين درويش – مطبعة الفجر – حمص – ١٩٦٠م.

٢٩- **ديوان الهذليين "القسم الأول"**، شعر أبي ذؤيب وساعدة بن جؤية، تحقيق القسم الأدبي، ط٢، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٥م.